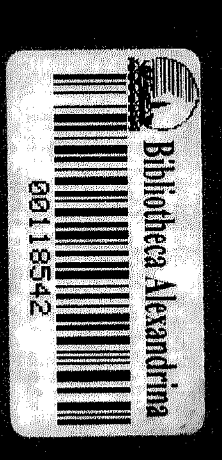
صحائف سوداء

أباظة









أسرار السياسة

للاستاذ فكرى اباظه

صحائف سوداء

فى تاريخ الانجليز فى بلادنا

من عهد عرابى باشا

إلى وقتنا هذا

الثمن ٥ صاغ


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاهداء

اعترافاً بالجميل . وتقديراً للفضل . وإقراراً بالمعروف . نهدى هذا الكتاب الى مصر العزيزة . الى نيلها وسودانها وملحقاتها . الى الشهداء والضحايا الذين تركب من عظامهم ثرى هذا الوطن طبقات فوق طبقات : طالبة إنصافها بانقاذها من رجس الأجنبي . وتطهيرها من دنس الغاصب . الى المتقين الذين هم بحق الوطن يؤمنون . وبحدوده وفاق الطبيعه وسلطان التاريخ هم يقيمون . وفى هذه السبيل مما رزقهم الله ومما يشترون وقاية لهذا الحق واحتفاظاً به مصوناً رابياً نامياًهم ينفقون. والذين يعلمون بما شرعه الامم والقرون والمدائن والقرى المصلحون من عظات. وبالتجاريب القومية هم يوقنون . وبحساب ربهم يثقون . وبالآخرة يصدقون .

وترحيباً وتكريماً. نهديه إلى قوم عتوا عن أمر ربهم . وخانوا عهد وطنهم . وقالوا فى تعال واستكبار . وفى غير استحياء ولا استعبار . إنا بالذى آمنتم به كافرون . ولما أخذتهم الرجفة . وأصبحوا فى ديارهم جاثمين . وجاءتهم البينة . فكشفت ماران على قلوبهم . وأضحوا على مافعلوا نادمين . تابوا الى الله . وأنابوا الى الوطن.

وهدى ورحمة وذكرى .نهديه فى النهاية الى الذين أشركوا بالوطن . وزين لهم الشيطان قتل أمة آمنة مطمئنة عزلاء ليردوهم . والذين يحرفون الحق من بعد مواضعه . عسى أن يزكى الله قلوبهم . ويقيهم فى الدنيا حزياً . وفى

الآخرة عذاباً عظيما . « إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً . ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم . إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء . فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » ؟

أحمد وفيق

تنبيه

وضعنا من هذه المذكرات حتى الآن ثلاثة الآف صحيفة من القطع الكبير . ولقد كنا اعتزمنا أن نصدرها في أجزاء كبيرة الحجم . ولكنا ارتأينا مراعاة للظروف الحاضرة وتمكيناً للقراء من الاطلاع أن نذيعها أجزاء عديدة في هذا الحجم الصغير

مناسبة الاصدار

ليس لى أن أنهز ذكرى معينة ، أو أتحين واقعة خاصة لاصدار كتابى « فى سبيل الوطن » . مادام عنوانه قد انطوى على معنى الجهاد . وما دامت صفحاته أشعة وهاجة ترسلها شموس أشرقت فى تاريخ مجد القوميات . ومادام الاحتلال البريطانى لايزال فى وادى النيل جاثماً .

ان كل يوم من أيام الاحتلال مناسب لأصدار هذا الكتاب . ففى كل يوم ذكرى استشهاد . بل فى كل يوم تستشهد مصر مع غروب الشمس لتبعث حية مع شروقها . وإذا كان الانتحار الادبى قد حل محل الاستشهاد اليومى فى السنوات العشر الاخيرة . قضاء لأحط الامانى . وتحقيقاً لأبغض المصالح فى أيام المحن والكوارث العامة . فان فى هذا الانتحار الادبى معنى الاستشهاد مادام فيه شق الطريق لتطهير يفضى إلى تعرف حقيقة الرجال الذين يستطيعون فى النهاية وبعد الصبر الجميل على الاذى والنوازل أن يعملوا للانقاذ العام بتضحية مصالحهم وصحتهم وذواتهم وأموالهم والثمرات . غير مستبقين إلا سمعة الوطن وسمعتهم بالتبعية للسمعة العامة .

فأصدار الكتاب هو إذن بمناسبة « الاستشهاد اليومى » العام « فى سبيل المصلحة القومية

ولما كانت هذه هى المناسبة . فقد حق علينا أن نحيى شهداءنا فى شخص سيد الشهداء . وأمام الزعماء الاطهار « مصطفى كامل باشا » . قائد النهضة المصرية النزيهة التى لم تعرف تراجعاً عن المبدأ . ولا نكثاً فى العهد . ولا نكولا عن اليمين . ولا ادباراً عن اليقين . ولا تسامحاً فى عقيدة أو دين . ولا زعزعة فى رأى . ولا توانى فى هدى . شرع مجاهدة الانجليز فلم يلو أو ينثن عن صراطه . وسن مناهضتهم فلم يحد عن خططه واشراطه . فلقد ناصبهم العداوة

منذ نزل الميدان يتولى قيادة مجالدتهم. حتى هبط جسمه ساحة القبر. وصعد روحه إلى ديار الحق.

وفى هذا اليوم يخلق بنا أيضا أن نحيي من حول مصطفى هالة الشهداء. الذين أحاطوا مبعث الايمان الوطنى أطارا انتظم لطيف سليم باشا. وعلى فخرى بك. ومصطفى نجيب بك. وعمر لطفى بك. وحارس باشا. وحسن رضوان باشا. ومحمود انيس بك. واسماعيل الشيمى بك. ومحمد فريد بك. وعبد اللطيف الصوفانى بك [illegible] بك. واسماعيل حافظ واحمد لطفى بك. ومنصور رفعت. وعلى فهمى كامل بك. ومحمود ناشد بك وأمين الرافعى بك. وعبد العزيز جاويش بك واحمد وجدى. واسماعيل لبيب بك. وأحمد فؤاد وغيرهم من الجنود المجهولين الذين تألقوا فى سبيل التضحية وسموا انقاذا للوطن وحقوق الوطن.

أن الوطنيين الابرار ليدركون فى كل يوم وهم يستشرفون هذه الخيالات النورانية مدى تلك السماء الشاسعة الاغوار تنفلت صعدها فى أعماق الانسانية وأصطلح العالم على أن يسميها الروح الوطنية.

ففى كل يوم يرى المخلصون فى كبد القبة الزرقاء نورا تركز ليرسل الينا اشعة قوية لاتقربها يد. وإنما تحسها. ولا يمسها جسد. ولكنه يشعر بها. ولايدركها عقل. وأن مثلت أمامه. ويقصر دون تعريفها النقل. وأن تجسدت قدامه. ذلك أنها تنفذ إلى القلب مباشرة. لتخاطبه بلغة العاطفة. وتحاضره فى لهجة الاحساس. أنها أشعة فى الداخل ساطعة. وفى الخارج لامعة. يراها الوجدان دائما فى ريعان الشباب. لا تبلى ولا تتجدد. غضة الاهاب. ناعمة خلا ملمسها من التجعد. ساحرة كانفاس الاحباب. آيتها الانتشار والتمدد. تقبل دائما ولا تدبر. وإذا انكمشت فلتستجم حتى تكر. دون أن تتراجم أو تفر. أبدا متوثبة لاداء الواجب فى دأب.

هذه آية «مصطفى كامل» والذين نتأوا حوله رصائع في محيط الشهداء. إنها معجزة هــذا العصر الذي أمسى فيه للرذيلة جلال. وللنقيصة تقدير واجلال. إنها الطير في وكره. يفيض حنانا ورحمة وعطفا على الابناء المخلصين. والعصر في شجره. يتدفق حياة ونشاطا وثمرة. للاوفياء المتقين. والمهل في أعماق البراكين. يغلي ويزمجر. ليندفع وينصب على العاقين والشياطين. ويطهر الجو من أدران الفاسقين. وينشر الخصب والبركة. بين البررة المهضومين. يخرج كما يخرج الحق من الظلام. ويعرق كما عرق الظلام من الغضب. نجهل حقيقة هذا الشعاع ولـكنك تراه نوراً في كل مكان ومن العبث أن تحاول مسه في أى آن.

فتحية إلى الشهداء في يوم ذكراهم المستمر. وسلاما على من كانوا ولا يزالون الشمس في حرارتهــا وقد جلسوا على عرشهم يطلون على صحراء الامام والمجاورين. يرقبون شئون امبراطوريتهم. ويتجلون من الافق على رعيتهم. والـكل ينتعشون بنظرتهم. ويتزودون نسيمهم. ويستنشقون نفحات حفيفهم. فاسطعوا ياسادة الاقوام. والمعوا وازدهوا فوق الآنام. فوادى النيل قصركم. وأهله حاشيتكم. وسماؤه وسادتكم. وأرضه تنبسط على أعينكم وتدور. لتسدلوا عليها من سلامكم بهجة الخضرة والنور. وروعة النضرة. والسرور. وتسبلوا عليها ثوبا من جلال القوة والمقدرة. بينما الزمن يجرى على مرءاكم خاشعا. وإذا ما دنا منكم هرول راكعاً. ضارعاً أن تتعففوا له من نفسه. وأن تؤاخذوه على جريرة تلبيسه ويأسه. وتقتصوا منه لجريمة تردده. وإبلاسه. وخبثه.

الزمن! إنه هذا الجيل الذين أطاعوا الغاوين. ولما برزت لهم الجحيم. ودنوا من حافتها ليكبكبوا فيها مع المبلسين. طمعوا في أن يغفر الوطن خطاياهم. وأن يلحقهم بالصالحين. وأن يجعل لهم لسان صدق في الآخرين

وما تزلف الجنة إلا للمتقين الذين يقولون بألسنتهم ما فى قلوبهم .

الزمن ! إنه هذا الجيل الذى يسمو إلى الشهداء ويخلد . وإذا ما تلقى عليهم أقسى الدروس عاد أدراجه وفى السير جد . فرما لايلوى على شيء . هلوعاً ومن خلفه جلال الجبهة الهادئة الساكنة يذيء له الدياجير . ويكشف له بمصباحه عن المصير . فى مقـدرة لاتجاريها بين الانسانية مقدرة . ذكراها نوار . وغيابها ليل .

فيامصدر أنوار القلوب ! لقد فسدت النفوس . وتحللت الاخلاق . وأصبح يطمع فى الناس . من عاف الطين والذهب بالامس : وأمسى فى مصر شبان وشيوخ ورجال ونساء يحتضنون الجريمة . ويتخذونها رأس مال يحاربون به الامة فى كرامتها وشرفها وسمعتها . عدل لقمه يتبلغونها . وتابل حصاد يتمرغون فى قذارته . فنزلوا بالاخلاق إلى أحط دركات الفساد المؤدية بالفرد والجماعة إلى جعل عنصر الاجرام مقومات الحياة ودعائم الشرف وتكأت الكرامة . وخيوطا صالحة لتكوين انسجة الضمير واصطناع الياف الذمة . وكل ذلك راجع إلى الاستهانة بحق الامة . وجعله موضع مساومة على المناصب والوظائف والحكم ووقف المنافسة على مايرمى اليه هؤلاء الذين يغضبون المناصب . ويحقدون على الوطن ويخنقون « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء . ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا أنا معكم إنما نحن مستهزءون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين إشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون صم بكم عمى فهم لايرجعون » .

يامصدر أنوار القلوب ! لقد انصرف غالبية الأمة عن صراطكم السوى وخرجوا على مبادئكم. وجروا مصر إلى الفحش فى الوطنية. وإرتداء رث الأثواب القومية. وامتهان الكرامة العامة. ولقد ذكرنا هذا الموقف بموقف «كورديليا» فى رواية الملك «لير» فبعد أن غدر بها هذا الملك. وانتزع منها حبه. وسلبها نعمه. وحرمت طيبات الحظ هجرها خطيبها الدوق ده «بورجونيا» ولكن ملك فرنسا جاءها قائلا ! «أن بؤسك يا كورديليا الحسناء قد جعلني أراك أغنى منك فى أى وقت مضى. وعزلتك قد رفعت من قدرك. ومأساتك قد ضاعفت حبي إياك. فبما أنهم هجروك والقوك فوق الثرى فاسمحى لى بان أرفعك فى إحترام متأجج. ولتكونى ملكتى وملكتنا وملكة رعايانا وملكة فرنسا الجميلة»

لقد أحب الحزب الوطنى «كورديليا». أحب مصر المغلوبة المنكودة المنكوبة المضطهدة عندما هجرها أبناؤها. وطلقها زعماؤها. وخان عهدها قادتها. فعقد عليها بدافع شقوتها. والعمل على راحتها وطيا نينتها. وفى سبيل انقاذها احتقر مظاهر الزواج الغنى. وازدرى بالمناصب. واشمأز من الطين والعقار. وطفق يعزيها بأجمل أناشيد التشجيع. ويسليها باعذب ترانيم الحنان والعطف المتدفق من أعماق قلبه القوى قوة قلوب الفرسان فى هجماتهم. الرحيم رحمة قلوب أحن الوالدات على فلذات أكبادهن.

ولكن سوء الحظ قد انقض على رجال الحزب الوطنى فانهكهم واضطهدهم وشردهم. فما كان من «كورديليا» إلا أن وجدت سرير الشقاء والآلام مريراً قاسياً فقالت للحزب الوطنى ! «تألم وحدك ولا ذهبن إلى حيث الذهب الوفير والفراش الوثير. حيث يعلو جبينى رياحين النصر وأكاليل الظفر والفخر» ولكن لنرث لحالها. ولنغفرلها ولانلعن الايام التى همنا فيها بحبها ساعة إذ

تجملت بدموعها . ولتصفح عنها . فقد أضلت فضلت . وخدمت فانخدعت وضاعت ثقتها . وآن لها أن تندم على مافات . وتتدبر ماهو آت . ولا زلنا على موعدها فى سبيل خدمتها وخدمة الانسانية الجريحة الدامية. ولتعلم مصر أن الحزب الوطنى « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما »

يامصدر أنوار القلوب ! دمتم ودامت أنوار ايمانكم تنساب أمطارا ذهبية تهطل فتتدلى خيوطها على أجنحة الهواء . فاذا بها ألوان فصول السنة اكتستها الغبراء. لتجعل أنصاركم أقوياء متنجين . وجوههم نضرة . لا ترهقهم فترة. كالاشجار كستها الطبيعة أثوابها الخضراء . وأولتها ثمارها الفيحاء.

يامصدر أنوار القلوب ! إقذفوا باشعتكم على الذين ناصبوا مبادئكم العداء انتصارا لمصالحهم الخاصة . أقذفوها حولهم من كل مكان حتى تكون « دشا » ساخناً يطهر الادران . ولتخلعن عليهم جاذبية تقتاد اليهم المبادىء الصادقة كتلك الجاذبية التى تخلعها السماء على الرياحين والورود . ترفا من الازياء والالوان . حتى تتسابق المبادىء اليهم فتلبسهم . فلا يتجشمون نصباً. وتغرو نفسها بهم فلا يتكبدون فى أعتناقها تعبا.

يا أيتها الارواح الكريمة ! تناولى ريشة الفن . وصورى لهؤلاء الذين زهدوا فى الحق . وطمعوا فى الباطل . صورى لهم وفاق مقتضيات الحال . وما أصبحت عليه حاجة السادة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . صورى لهم خلعة سنية . وحلى بالذهب والفضة أجساداً تعشق الذهب والفضة . ولوحى لهم بلوحات براقة أخاذة من أخف المعادن وأغلاها لمن يعبد أخف المعادن وأغلاها . وأسبغى ثوبا من البرد على الذين يريدون

أن يكونوا فراشة بيضاء ـ أو كوكباً في عين دعجاء . واسبلي معطفاً مرصعاً على الذين يرغبون في أن يكونوا وردة حمراء . وحلي كبار المطامع كما حليت القدرة الطاووس . بأبدع ما صنع البارئ من جماع الالوان . ليختالوا اختيال العروس . يعجب برشاقتها الفنان . وانسجي الاعاظم ثوباً من خيوط الفجر . يباهون به الكواعب الحسان . واحتفظي لنا بزرقة السماء علنا نتمتع يوماً بما تنبئه الزرقة من صحو ينعكس ضياؤه على سطح البحر الهادئ فتتمثل أمامنا طيبة القلب . والافافرغي ضياءك على القلوب ينعشها . ويسلك الحماسة فيها ويحييها ويعلن للوجود . معنى الخلود . «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفقا»



« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ومايضلون إلا أنفسهم . وما يضرونك من شيء . وانزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » وصلاة وسلاما على من أنزل عليه « فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الارض بغير الحق . يايها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون. إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الارض زخرفها وأزينت . وظن أهلها أنهم قادرون عليها اتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » « محمد » صلى الله عليه وسلم. سيد المرسلين . وخاتم النبيين . وأمام المجاهدين . أقام صراط الخلود على أن « من فى الدنيا ضيف . وما فى اليد عارية . والضيف مرتحل . والعارية مؤداة» ومن قاعدة المجد على أساس حديثه الشريف : « أحذروا الدنيا وحلاوة رضاعها لمرارة فطامها » . ورضوان الله على صحابته والزاهدين فى حطام الدنيا« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله . والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » أما بعد فهذه «فاتحه» كتابي «فى سبيل الوطن» وهو كتاب أخرجه للناس هدى ورحمة. فى عدة اسفار جمعت مذكراتى ولا سيما ما دونته منها خلال حياتى السياسية التى بدأت فى سنة ١٩٠٦ . وانى

لا نشر هذه المذكرات تلبية لنداء الذين كرثتهم المحنة الحاضرة . وأجابة للخلق الوطني القويم ناشدني الاستمرار في جهادي بعد أن أوصدت أمامي سبل النشر الاخرى . والفكرة القوية لها أثرها سواء أكانت أذاعتها بالصحف أم المجلات أم المنشورات أم الكتب مادامت التربة صالحة لانباتها . والجو ملائماً لترعرع نبتها . والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب مصحة للاستشفاء يجد فيها المصاب بالسل الوطني غذاء يساعده على المقاومة . ويعثر فيها المريض بالاضطراب الذهني على دواء يشفيه من مرض التيء العقلي والمغص الخي ويتفقد فيها المتعب ضالته من الراحة ليسترد بها الاتزان الفكري

سبب الاصدار

ان اسم كتابي « في سبيل الوطن » صريح في الدلالة على سبب وضعه والغاية منه . فالسبب واحد . والغاية واحدة . كلاهما لا يتجزأ . ولا ينتقص ولا نزاد عليه .

إن السبب هو الاحتلال . والغاية إجلاء الاحتلال . بتدعيم الخلق القومي وانماء الشعور الوطني والحرص على إطراد هذا النماء

للانجليز خطة مرسومة نحو مصر . ولقد طفقوا يحاولون تنفيذها منذ سنة ١٧٧٥ وفي كل دفعة كانوا يفشلون فيها يعيدون العمل لانجاحها كرة أخرى . وفي شكل آخر . ولكن جوهرها هو هو . واحد لا يتغير ولا يتبدل وهو ضم مصر إلى انجلترا بارادة مصر وإقرارها .

ولقد إعتادت انجلترا في كل جيل أو مايقرب من جيل — مع احتمال الزيادة والنقص — أن تقطع مرحلة من هذه الخطة . فان ركزت أقدامها عندها وثبتت بدأت مرحلة اخرى بعد إنقضاء هذه المدة . وعلة انقضاء الثلاث

والثلاثين سنة واضحة هى العمل على طبع الجيل القادم بطابع خاص .

فى سنة ١٧٧٥ ، أبرمت انجلترا مع أبى الذهب معاهدة خاصة بعرفأ السويس ورسو السفن الانجليزية هناك . ولما كان ثغر السويس أو برزخ السويس او قناة السويس هى مصر . بل وادى النيل والاماكن المقدسة . فان خليفة المسلمين أصدر فى ذلك الحين فرمانا يقضى ببطلان هذه الاتفاقية . فخضعت انجلترا وقتئذ لقوة السلطان وشوكته . ولكنها لم تقلع عن غاياتها . ولم تستأصل جرثومة الطمع فى مصر من اعماقها . بل تحينت الفرصة وتربصت بمصر الدوائر حتى تقتنصها . فاذا ماوقعت بين أيديها لاتفلتها .

فى سنة ١٨٠٧ — ولا يمكن سياسياً أن تكون مطاردة بونابرت فى مصر تنفيذاً لخطة احتلال مصر — أنزلت انجلترا جنودها فى الاسكندرية بعد أن أطلقت مدافعها على الابراج فهدمتها . وأبرمت معاهدة حماية مع حاكمها . كما أنها كانت قد عقدت مثل هذه المعاهدة مع البرديسى حتى يتم لها خضوع مصر . ولكن الشعب المصرى أكره الانجليز بعد معارك رشيد وغيرها من المعارك التى وقعت فى البحيرة على الفرار حتى ركبوا البحر وفى طيات أعلامهم آيات الخزى والعار . ولقد أبرموا فى ذلك الحين معاهدة مع وزير خارجية مصر ولكنهم مع ذلك لم ينتزعوا من نفوسهم الغل الذى أنبته غلب المصريين وانتصارهم عليهم . وجعلت القرحة تنز كلما أذكروا الطعنات التى توالت على أقفيتهم بين رشيد والاسكندرية . ولذلك رأيناهم يشتركون مع روسيا وفرنسا فى تدمير الاسطول المصرى غيلة وخيانة فى معركة ناورين فى عشرين أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ثم قاوموا محمد على فيما بعد بمناسبة معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣

وفى سنة ١٨٤١ أتمت انجلترا شطراً كبيراً من مهمتها . اذ أضعفت مصر

إضعافاً كبيراً بمعاهدة لندرا وما تلاها من فرمانات . ولما توفى ابراهيم ومن بعده محمد على. هدمت مجهودهذين البطلين بيد عباس الاول . ثم حصلت على امتياز سكة حديدية بين الاسكندرية والسويس وقاومت فكرة حفر قناة السويس . ثم سلبت من قيصر روسيا فى سنة ١٨٥٣ . ومن نابليون الثالث سنة ١٨٥٧ تصريحاً بالاستيلاء على مصر . وفى سنة ١٨٦٦ أعدت حملة لغزو مصر ولكنها عادت أدراجها وهى فى منتصف الطريق بمناسبة الهدنة التى عقدت بين ألمانيا والنمسا . ثم حالت دون إعلان استقلال مصر فى سنة ١٨٦٩ وفى سنة ١٨٧٢

وفى سنة ١٨٧٥ بطشت انجلترا بمصر البطشة الادبية الكبرى. إذا أوفدت المستر كيف لمراجعة حسابات المالية المصرية . واشتركت فى صندوق الدين. وفى نوفمبر من تلك السنة أتمت الصفقة الخاصة بشراء أسهم الحكومة المصرية فى شركة قناة السويس فتم لها الفتح الادبى. وتلا ذلك العمل لتثبيت هذا النفوذ وتحويله إلى نفوذ مادى . ثم جاء جوشن فى مهمته . وقرر مؤتمر برلين فى جلسة سرية بايعاز بسمرك الموافقة على المراقبة الثنائية قصداً إلى قيام الخلاف بين انجلترا وفرنسا فى مصر كما قام بين المانيا والنمسا فى شلسويج هولشتين . وأعقب ذلك نزول الطامة الكبرى . إذا احتلت انجلترا مصر فى سنة ١٨٨٢ فاستحال النفوذ الادبى الى نفوذ مادى حيث أمكنها رغماً من اتفاقية الاستانة أن تحاول املاء ارادتها على الدول فيما له مساس بمصر أو بموقف الاحتلال البريطانى فيها . وجعلت من مفاوضاتها مع الدول قصداً إلى الجلاء عن وادى النيل كما جعلت منها مع احزابنا الحكومية خرشوفة تنتزع منها ورقة أو عدة ورقات فى كل . دفعة . وناهيك بذلك التحفظ الذى حلقت عليه نفاذ معاهدة سنة ١٨٨٨ وهو الخاص بعدم التعرض لجيش الاحتلال فى مصر . ثم اشتراط عودتها إذا اختل الامن فى مصر بعد جلائها عنها. وهو الشرط الذى اخفقت من أجله اتفاقية دروموندولف. أضف

إلى ذلك كله تصرفها فى الاراضى المصرية بعد أن أرغمتنا على ترك السودان.
اقتطعت من جسم مصر اجزاء شاسعة . اجرت بعضها وتنازلت عن ال
الاخر مع تعليق رده إلى مصر على شرط أن تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها
استعادت السودان بدماء ابنائنا واموالنا وجعلته شركة بيننا وبينها على أن يكون على
الغرم فيها ولانجلترا الغنم منها . ولقد كانت المعاهدة الخاصة بتسوية
السفلى (السودان) بين انجلترا وفرنسا هى ابدأ تصفية الحساب بين
الدولتين .

وفى سنة ١٩٠٤ تمت تصفية الحساب . وأمضت فرنسا وانجلترا الا
الودى . فانطلقت يد انجلترا فى مصر رغما من أن وضع القضية الم
لم يتغير .

اكتسبت انجلترا فى مصر هذا المركز . ولكنه لم يرض كل مطام
فاعتزمت أن تعمل على توطيد أقدامها وترسيخ أساس استعمارها .
إذا ماجاء أجل الاتفاق الودى فى سنة ١٩٣٠ استطاعت أن تواجه الدول
واقع . ولكن الحوادث والحظوظ سبقتها إلى تحقيق غايتها . وخيانة الظ
والسياسة شدت أزرها . فقد وقعت الحرب فى سنة ١٩١٤ . وحسرت ا
اللثام عن حمايتها المقنعة وجاءت بحماية صريحة فيل وقتئذ أنها لضرو
حربية . وهى حماية لم ترفع حتى الآن فعلا وأن تبجح البعض فى القول
رفعت . وأن انجلترا كفت أيديها عن التدخل . إذ القانون الدولى
وجود الحماية نظريا . والتدخل السرى يؤيد وجودها العملى فعليا . وهل
دليل أقطع على وجودها من أننا لانعمل عملا إلا إذا راق انجلترا ؟

وها هو جيل جديد يطل علينا . فاذا اعددنا لمقاومة ماعسى أن تق
به انجلترا فى مستهل الجيل القادم ؟ أمن المحتمل أن تفاجئنا بما يصرف -
عن غايتنا كتسيير حملة لا كتساح الحبشة مثلا تحقيقا لمشروع غلادستو
كما أنه من المحتمل أن يفاجأ العالم بكارثة حرب عالمية جديدة . فهل نحن

قوة نقاوم بها الاحتلال الاول . أو على اجماع يمكننا من انتهاز فرصة الاحتلال الثانى لانتزاع استقلالنــا وتدعيمه ؟ ليس الامر بداع إلى التردد والحيرة أو التشــكك . فالموقف واضح . والاستعداد جلى . ولا جواب إلا أننا اليوم لعاجزون عن القيام بأى حركة كريمة شريفة. فما هو السبب ؟

محنة اليوم

إننا اليوم فى محنة ، وهى محنة نفســية خلقية عقلية عصبية عامة . ولقد تنبأ الحزب الوطنى بها منذ الناشئة الاولى لتكوين الوفد .

أبان الحزب الوطنى حقيقة المصير الذى آلنا اليه اليوم ساعة إذ قابل سعد السير ونجت فى ١٣ نوفبر سنة ١٩١٨ وتنازل له عن مصر مقابل تنظيم للحماية على قاعدة منح بعض امتيازات داخلية للامة المصرية . وأبانه ساعة إذ خطب سعد فى الجمعية الجغرافية ، وساعة إذ أصدر الوجهاء ومن فى حكمهم منشورهم الذى سجلوا فيه على مصر مسئولية الثورة عند ماعين الفيــلد مارشال اللنبى حاكما مطلقاً على مصر والسودان فى مارس سنة ١٩١٩ . وابانه بمناسبة المفاوضات مع ملنر وفى كل مناسبة أخرى سواء بمنشوراته أم خطبه أم كتبه أم تقاريره أم صحيفة اللواء المصرى والاخبار أم باقلام كتابه ورجاله فى كل عهد من عهود الوزارات الحزبية . وكذلك أبانه نوابه من فوق منبر البرلمان .

ولقد علل الحزب الوطنى هذا التنبؤ أو التوسم بضــعف الزعامة ضعفاً سياسياً خلقياً عقلياً عصبياً . وعجزها عجزاً مطلقاً عن فهم الآثار المترتبة على قانون التوارث المصرى العام . حتى انتقلت العدوى من الزعامة الى الامة. فأصبحت

مترددة حائرة متشككة لا تستطيع حكما ولا استقراراً . لأن الزعامة تسلط عقل نسبي على أنصاف عقول أو على لا عقول أو على عقول. وانصاف عقول لاتفهم أنها فى هذا المستوى . ومتى انقاد كل ذلك الى الضعيف العاجز سياسة وخلقاً وعقلا وعصباً . انطبع بهذا الطابع وتخلق بهذا الخلق وقاده ذاك العقل وحكمه هذا العصب فى ظروف ومناسبات خاصة إن لم يكن على التوالى .

والبوم نرى المريض الذى كان بالامس موضع علاجنا يتخيل أن الأمة أصل الداء . والحكمة فى ذلك اشتداد المرض عليه . والمريض هنا ليس حزباً حكومياً خاصاً وانما جميع الاحزاب المستوزرة . لاننا لا نزال نعتبر الوفد وحدة قائمة لم تتصدع فى أى وقت ولم تتشقق لاى شهوة أو مصلحة . لان شهوة الجميع واحدة . ومصلحتهم واحدة . هى إذلال النفس مقابل مناصب الحكم . واذا كان هناك خلاف بين الاحزاب فانما فى الوسيلة المؤدية الى استبقاء الحكم . فالبعض يركن فى ذلك الى الاعتماد على الدهماء وهم رجال الوفد . والبعض الآخر يعتمد على التشريع وهم الاحرار الدستوريون والاتحاديون والشعبيون

وفى الحق أن سعد زغلول لم يمت ولا يزال يجمع بين الاحزاب المستوزرة . لأن الوفد لم يتحول عن سياسته . والاحرار الدستوريين الذين خرجوا أول من خرجوا على الوفد يطبقون فكرته وأن تصوروا أنهم هيئة قائمة بذاتها . والاتحاديين الذين تكامل عقدهم ممن انفرطوا . من هنا وهنالك . ينفذون خطة الوفد . والشعبيين الذين تجمعوا ممن فاتهم تحقيق المصلحة الخاصة أو بعضها ايام انتسابهم للاحزاب الاخرى يرسمون بما رسمه سعد ورشدى وعدلى وسعيد ويوسف وهبه ويحيى ابراهيم وتوفيق نسيم وزيور وثروت ومحمد محمود والنحاس . ولذلك فلا يجوز أن يتراشق هؤلاء الاحزاب المستوزرة بتهمة الاعتماد على الانجليز ولا أن يعير هذا ذاك إذا هو حرص على مصلحته الخاصة مادامت سياسة

الجميع واحدة هي القناعة بفتات الموائد البريطانية والزهد فيما لا ترضاه انجلترا.

وإذا كان المقام لا يتسع لكل ما أوردته الصحف الوفدية والحرة الدستورية والاتحادية والشعبية والمحايدة من آراء خاصة بقانون التوارث القومي . إلا إننا نورد جملة قالتها السياسة بعددها الصادر بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٣٣ بمناسبة حادث تبشير اهتمت له الصحف جميعا في هذه الاونة. ولو أنه وقع في عهد كانت الظروف السياسية مما يراه القادة المستوزرون يتطلب التسامح في العقائد الدينية لما سمعت غير صوت الحزب الوطني يتردد في جوانب مصر قالت السياسة بعد كلام طويل

«ولو أننا استطعنا أن نوجه نفوس ناشئتنا في المدارس والكليات والمعاهد غير هذه الوجهة الدنيا وخلقنا في نفوسهم الايمان بالحق وجذوة المثل الأعلى المقدسه لانشأنا في جسم هذه الامة روحا قويا بدل هذا الروح الخامل الخامد الذي ما أضعف اليوم ما ينبض . ولكننا مقيدون بماض ثقيل ونفوس ضعيفة ووضع سياسي يستعدى الضعفاء على الاقوياء والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيمانا . فحسبنا الله في أولئك جميعا ونعم الوكيل»

* * *

هذا وأشد من هذا قد قيل بمناسبة تنصير فرد . لأن الوفد والاحرار الدستوريين خارج الحكم . ولو أن للعدل أثارة في نفوس هؤلاء الكتاب. ولو أن العقل المتزن الصحيح هو الذي أملى حقا هذا الدفاع على هذه الاقلام لكان من الواجب على هؤلاء الكتاب جميعا أن يناصروا الحزب الوطني في موقفه ازاء حملة التبشير العامة التي قامت بها انجلترا في سبيل تنصير أمة على بكرة ابيها بانتزاع الايمان من قلوب المصريين جميعا عندما اتخذت من الاحزاب المصرية المستوزرة ابواقا للتبشير بمشروعات ملنر وكرزن وتشمبرلن وهندرسن .

وتنفيذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . حتى تقضى على السنة الشريفه القائلة « حب الوطن من الايمان » لتحل وثنية جديدة محل هذا الايمان الذى لاقوام لامة دونه وهى عبادة انجلترا من دون الله استدرارا للخيرات . وقضاء للبانات . وتحقيقا للمصالح الخاصة . والحق على هؤلاء الكتاب أن ينادوا كما نادى الحزب الوطنى بمقاومة سياسة التفاهم التى قضت على آمال أمة وأنزلت بها المحنة الحاضرة التى جعلت صحيفة الجهاد تصيح صيحة الحق فى عددها الرقيم ٢٣ فبراير سنة ١٩٣١ تحت عنوان « السياسة البريطانية عدو مصر اللدود » حيث جهرت بقولها « صحنا صيحتنا فى هذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التى طالما حبسناها فى صدرنا مراعاة لما يسميه بعض الساسه (مقتضيات السياسة وترقب الظروف)

« ولكن حبل المصابرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول . وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح . . . »

وقالت البلاغ فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « وعبثاً تتوارى انجلترا خلف تصريح ٢٨ فبراير . فباسم هذا التصريح قد تدخلت صراحة وجهراً ضد البرلمان المصرى ، وهو ينظر فى قانون من أخص شئون مصر الداخلية . وباسمه تدخلت وتتدخل كلما رأت فى التدخل مصلحة حاضرة أو متوقعة . . . »

وقالت البلاغ فى عددها الصادر بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « ان مطامع انجلترا فى مصر لا تقف عند حد درس تلقاه هذا الجيل عملياً وشاهدناه بأعيننا . ومن كان فى شك فليرجع إلى تاريخ انجلترا مع مصر فى تعويضات الموظفين ... فالنفوذ البريطانى والجيش البريطانى قائمان فى هذا البلد لمصلحة

انجلترا . ولخدمة الشعب البريطانى . والتجارة البريطانية . وهـذا النفوذ الملموس المحسوس يتدخل كلما طاب له التدخل . ويبرز كلما اقتضت مصلحته أن يبرز . ولن يعجز السياسة البريطانية انتهاز الفرص واختيار المناسبات . الخ »

فالجهاد تعترف بجريمة الوفد . انها تعترف بأن الوفد أفسد على مصر جهادها وأذهلها عن قضيتها الكبرى . وأخرج هذه القضية عن وضعها الطبيعى الصحيح .

والبلاغ تسجل جنايات الوفد وتشير إلى الحل السعيد وتدخل انجلترا فى قانون المظاهرات والاجتماعات وهو من أخص شئون مصر وتحمل على رضاء النحاس باشا بالانصياع إلى إرادة انجلترا . ثم هى تشير إلى التنفيذ شىء والاستنكار شىء عند ما تلقى على عاتق سعد تهمة الخيانة بالنسبة لتعويضات الموظفين

ان هذه الآراء هى ما كان من الواجب أن تسود العقول والنفوس المصرية قبل المفاوضات وتسمم العقول بقبولها قبول العاجز عن كل شىء والتدهور إلى أحط درك من حضيض الضعف ومهانة النفس

هذه الآراء هى ما كان من الواجب أن يتشبع بها المصريون فى الاكواخ والحقول . فى الحدائق والقصور . فى المصالح والدور . فى الخلاء والعراء . فى السهل والجبل والبيداء حتى لا يفقدوا قوتهم المعنوية التى ضعضعتها جريمة سياسة حسن التفاهم واعتبار الانجليز خصوما شرفاء معقولين خلال نيف وعشر سنوات . وهذا ماعبرت عنه الجهاد بقولها « صحنا صيحتنا فى هـذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التى طالما حبسناها فى صدورنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات الظروف) — سياسة حسن التفاهم — لكن حبل هذه المصابرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول

وحتى افسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح . . . »

ولقد قالت السياسة ضمن مانقلناه عنها آنفا : « إننا مقيدون بماض ثقيل ونفوس ضعيفة ووضع سياسي يستمدى الضعفاء على الاقوياء . والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق ايمانا فحسبنا الله فى أولئك جميعاً . ونعم الوكيل »

وهذه كلمة حق مرقت من فم السياسة وان هى انطبقت فعلى وصف رجال السوء الذين حبسوا الحقيقة المرة فى صدورهم « مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسية وترقبا للظروف) وطال حبل مصابرتهم حتى تجاوز طوله كل معقول . « وحتى أفسد علينا جهادنا وإذ هلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح . . . . » وكذلك تنصب كلمة السياسة على من قال فيهم البلاغ ما اقتبسناه عن مقاليها الافتتاحيين الصادرين بتاريخ « ٢٢ و ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ وماعنت البلاغ غير سعد والنحاس

ولكننا لانجارى السياسة فيما أوردته بالنسبة للوفد ولا نجارى البلاغ والجهاد فى حملتها المنكرة على الوفد . بل لابد من أن ندع هذه الاقوال جانبا وأن نؤيد الرأى بالحجة البالغة . فمن هؤلاء الضعفاء والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم ؟ ومن الاقوياء الذين ملأ الله قلوبهم بالحق ايمانا ؟ وما هو هذا الماضى الثقيل الذى قيدنا ؟ وما هى حقيقته والآثار المترتبة عليه ؟ وهل هذه السبة التى دمغ بها الوفديون والاحرار الدستوريون وجه الامة صحيحه ؟

أن الرد على هذه الاسئلة يتطلب حتما أن نحلل زعامة سعد حتى نزن كفايتها ونعرف قدر مواهبها . وهذا يدعو إلى تحليل سعد من نواحى قوانين الوراثة والملابسة والوسط وبحث أتزان عقله وعصبه وحواسه وذاكرته . الامر الذى

يتطلب تفصيلا ضافيا وافيا عن معنى التشكك بأنواعه الطبيعية والعلمية والفلسفية. وموضوعه وأسبابه ودوافع عالمه ونتائجه وعلاجه بحيث لا نتناول تحيص سعد الا تناولا علميا حتى اذا ما ردعلينا كان الرد علميا بحتاً فاذا ما وصلنا إلى تكوين فكرة صحيحة عن زعامته انتقلنا إلى بحث الامة أيضاً من ناحية قانون الوراثة وناحية قانون الوسط والتطور والرقى والتدهور حتى نعرف أن هذه الامة من عنصر كريم نبيل مقدام يسطع جوهره السامى إذا رفع الزعيم ما علاه من صدأ الزمن وحافظ على هذا السطوع باضرام نار الحمية والغيرة فى الصدور باستمرار ودأب. ونوقن أنها دائما فى انتظار هذا الزعيم لشد أزره فى جرأة لا تعرف تراجعاً ولا تقهقراً ولا تدهوراً إلا إذا تراجع الزعيم وتقهقر وتدهور. وهذا يدعو الى القاء نظرة على ماضى الامة البعيد والقريب سواء من الناحية الداخلية أم الخارجية. ماوقع من قادتها أو من الجاليات الاجنبية. أو من سياسة الدول على ممر السنين ولا سيما منذ الحملة الفرنسية حتى مؤتمر برلين ومؤتمر الاستانة فى سنة ١٨٨٢ وأيام مصطفى كامل باشا.

فاذا نحن درسنا الامة على حدة وحكمنا عليها دون أن ندرس تيار الفكرة الدولية والسياسات العالمية وحركات الشعوب وتربية الزعماء فى نشأتهم وعصرهم ومدى خيالهم كان حكمنا على الامة باطلا ولغواً. نعم أننا إذا لم ندرس مصر على ضوء القرن التاسع عشر وقد حفل بالانقلابات الشعبية التى تربى فى وسطها بعض ولاة مصر وحكام مصر وزعماء مصر وعادوا اليها ليعيشوا وسط الزعازع وتيارات المطامع الاستعمارية المتعارضة التى كانت تؤدى إلى مطاحنات دوت فى بعضها المدافع وكادت تدوى فى البعض الاخر وإذا لم نلحظ فى هذا الدرس موقف مصر العلمى والادبى والخلقى فان هذا الحكم يكون كذلك الذى يصدره مؤرخ عقيم على نابليون الاول إذا هو لم يعتد بالثورة الفرنسية الكبرى. بل كانت

مهمة هذا المؤرخ هى دفن الامة المصرية . وهى مهمة شأنها شأن مهمة موسيقى روميو وجوليت الذين دعوا للعزف فى ليلة الزفاف ولكنهم ما وصلوا إلى مكان الحفلة حتى أدوا مهمة تشييع الجنازة وعزفوا الاناشيد الحزنة المفجعة .

فاذا نحن وصلنا إلى الحكم على الامة حكما مدعما بالاعتبارات السابقة واستخلصنا الصفات التى يتحتم أن تتوافر فى الزعيم الذى يجب أن يناط به قيادة الامة المصرية فقد حق علينا أن نقيس هذه الصفات بصفات سعد حتى نعرف هل كان رجل الساعة أم لا ؟ وهل كانت الامة عاجزة فاعجزته . أم هو الذى كان عاجزاً فأعجزها عن العمل لاستقلالها وأقعدها عن استرداد حريتها ؟ على أنه إذا كان قانون الوراثة قديم وقانون الوسط أقدم حيث يرجع ذلك إلى عهد الاغريق الاقدمين كما يستدل على ذلك من قصائد « بندار » وكما يستدل على ذلك أيضاً من الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ومن الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخال » فاننا لا نرجع إلى هذين القانونين إلا من الناحية العلمية الاصيلة التى ذاعت فى القرن الاخير

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو خطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »

*

قانون الوراثة
وأثره في سعد زغلول

ليس فى طوق المؤرخ أن يحكم على رجل من رجال التاريخ إذا فاته الاعتماد على قانون التوارث بشقيه . الخاص والعام . وتأثير قانون البيئة . وأثر التشكك فى القوة المدركة والعصبية . أو إذا هو أهمل الرجوع إلى هذه القوانين وهو يستخلص من الوقائع صورة رجل التاريخ . وسعد هو هذا الرجل سواء أحسن أم أساء إلى وطنه . لذلك نرى من الواجب . أن نبسط كلمة بصدد هذه القوانين وأحوال التشكك وأن نطبقها على سعد زغلول والامة المصرية حتى إذا ما انتهينا إلى صورة صحيحة من سعد بروحه وفكرته وعقله وعصبه ، وإلى اخرى من الامة المصرية . بحياتها وخلقها وموقفها الاجتماعى استطردنا إلى بيان أعماله وبواعثها وما حاط بها من مؤثرات تحقق معها غرضه أو أخفق .

تعريف قانون الوراثة

التوارث قانون « بيولوجى » يقضى على السلالة بان تكون تكراراً للكائنات الحية التى انحدرت منها . فهو للنوع بمثابة الشخصية للفرد . فبالتوارث يعيش فى أعماقنا جوهر لا يتأثر ولا يتغير مهما تعددت التقلبات . وبه تستمر الطبيعة فى التوالد لاخراج ذاتها . وتقليد نفسها على توالى الازمان .

هذا من الناحية الجسمانية . أما من الناحية الروحية . فينحصر التوارث فى أن ينتج الاصل شبيهاً به . إلا أن هذا الرأى نظرى إلى حد ما . لأن أحداث

الحياة ليست خاضعة لنظام حسابي دقيق . إذ تزداد صور هذه الاحداث تعقيداً كلما انتقلت بها من عالم الحياة النباتية إلى الحيوانية فالانسانية .

ومهما كانت صعوبة تقدير التشابه فان تقدير الانسان يرجع إلى ناحيتين : ناحية التكوين . وناحية المحرك . أي جهة الوظائف المترتب عليها حياة الانسان الجسدية . وجهة الاعمال التي تتألف منها حياته الفكرية .

فهل هاتان الصورتان اللتان تتشكل فيهما الحياة الانسانية خاضعتان لقانون التوارث ؟ وإذا كان فالى أي حد ؟

لقد درس العلماء هذا الموضوع من الناحية الجسدية درساً عميقاً . أما من الناحية الفكرية والنفسية فانهم لم يستطيعوا التعمق فيها حتى الآن .

ولذلك رأيناهم يركنون في بحثها لى المشاهدات والتجاريب . ولما كان الشأن الاكبر في تقدير سعد ووزنه هو من الناحية النفسية . وكان انتقال الخصائص الروحية عن طريق التوارث مرتبطا تمام الارتباط بالتسلل الجسدي من جهة أحداثه وقوانينه ونتائجه وأسبابه . فقد تحتم علينا في هذا المقام أن نشير إلى أن الاجماع قد قام على أن التوارث الجسدي يشمل انتقال عناصر الجسم ووظائفه . سواء أكان من ناحية تكوينه الداخلي . والخارجي أم من ناحية أمراضه ومميزاته وتغييراته المكتسبة دون العارضية فهل الامر كذلك من الناحية النفسية ؟

يجمل بنا قبل أن نخوض هذا الناموس النفسي أن نعرف ممن انحدر سعد وماذا كانت غرائز منبته . وصفاته وخلقه وطبعه وتطوراته .

ممن انحدر سعد

ولد سعد زغلول في حكم سعيد عام ١٢٧٧ هجرية بناحية إبيان التابعة لمديرية الغربية . من الشيخ ابراهيم زغلول . واقد اصطلح سعد وأقارب سعد على أن الشيخ ابراهيم كان عمدة رغم فقره وكان هكذا في عهد سعيد واسماعيل .

يوم كان العمدة اداة تحقير للذات وللخلائق . ومن ارتضى أن يلبس فى سهولة هذا الرداء البشع تيسر الحكم على قدر نفسه .

كان الشيخ ابراهيم زغلول رحمه الله كما وصفه لنا المرحوم عبدالله بك زغلول «طويل القامة . ملىء الجسم . عريض المنكبين . واسع العينين . حاد البصر . فصيح اللسان كبير الرأس . حاضر الذهن . شهى الحديث . عف عن الثرثرة ومكه فى تدبر وتبصرة . يدور مع الزمن ويلعب . ويراوغ روغان الثعلب . لا يجف لبه . ولا يستريح قلبه . ولا تسكن حركته . وانما فى رصانة وتؤدة تبلغ حد الخيلاء . إذا سأله صديق أو قريب لا يسمع وإنما يجمجم . لا يعرف بينه وبين الموزوع سلاسة القياد . ولكنه شديد العناد . عسر الانقياد . يتناوى عمله والغيث الصيب . حتى فى الارض الطيب . ترى له فى كل وقت . مادة مقت . ونزوة شيطان . تثير الجنان . وتطارد الجنان . إذا أنت احسنت اليه ضاع احسانك كالخط على بساط الماء والرقم فى بسيط الهواء . وإذا أنت ظللته بنعمة اشتغل بسكرها عن شكرها . وإذا أسأت اليه دان بعد طاحه . ولان بعد جماحه . فهو أمام الضعيف يتنمر . وفى خدمة القوى يتطوع . ويستأسر لصاحب السلطان . ويستأسد أمام الجبان . ولذوى النفوذ يتذلل . وعلى الضعفاء يتدلل . فتجده أمام المأمور كار جوحة المولد . دائما فى نزول وصعود . وقيام وقعود . قد حذق الانحناء فى السلام والسجود . يقبل الارض بين يدى الحاكم واليه يحفد . كانه يهم بان يصلى الفرض أو يتهجد . ولا يحسن الابتسام إلا إذا جلد . ولا يزداد نشاطا وغيرة إلا ساعة التسليم . وكلما ارتفعت حرارة السباطعات أدرجة الاكبار والتعظيم . ولكنه فى الخلاء يضطرب ويضطرم وفى العراء يحتد ويحتدم . ويفور غيظا . ويتميز حقدا . ويتربد حنقا . واليدان حرتان مقيدتان . وجمرة الغضب فى صدره تلتهب . فلا ينطلق لسانه ولكن همته تضطرب وتصطك اسنانه ورقبته تلعب ويغالب نفسه على الاغضاء . ويتلوى

تلوى الحية فى الرمضاء . ولايثور وجدانه . ولا يتماسك عند الارزاء . ولا يتمسك عند الصبر والعزاء . وإذا دعاه الظهور لبى ببيع الماء لشراء الاماء . وإذا نقصت غلته . زادت غلته . يرضى من الفضل بالقول الفصل . ومن البر الجزيل . بالكلام الجزل . لايعمل فى مجاهدة هواه . ولايركب الصعب لتحقيق مناه . وإنما ينفدر إذا قدر . ولا يبسط فى التقوى وانما يقدر . لاشبيه له إلا العصفور ان أنت تركته فات . وان قبضت عليه مات . »فهل تأصلت فى نفس سعد غريزة الاستكانة والذلة . وتوافر فيه التجرد من فضائل البطولة والاقدام . وتنزه عن العزة والكرامة . والحدة فى مواطن الحدة . والصلابة فى مواضع الصلابة ؟ وهل فاضت فى أعماقه ينابيع المجد الطبيعى . وتأصلت فيه نزعات الشهوات المقوتة . ودفعات المطامع الخبيثة . فكان أداة سهلة الانقياد . وممولا هداما فى يد الاقوياء . وسلاحا بحدين فى يد الضعفاء . ان قبضوا عليه لتبييته فى صدر العدو مزق أيديهم وهدر دماءهم ؟

كيف نحكم على سعد ؟

لايتسنى لانسان أن يحكم على سعد إلا اذا عرف أولا وقبل كل شيء هل هو رجل سياسي أو عادي ؟ . لأنه اذا كان من الجائز إزاء الفرد العادي أن نلجأ الى الطريقة التحليلية فى بيان أثر التوارث فى النفس . فمن المستحيل تطبيق هذه الوسيلة على اطلاقها بالنسبة للرجل السياسى . لان رجلا من القادة . أو زعيما من الزعماء لابد وأن يعمل بمختلف مواهبه معاً وفى وقت واحد . لانتاج عمل معين . وبمعنى آخر . ان رجلا سياسياً لامناص لجميع قواه من أن تشترك فى اخراج أى عمل يقوم به لان نتيجة أى جهد من جهوده المنفردة لا قيمة لها إلا اذا عاونت فى الثمرة النهائية لكده . واذن فالغرض الذى يدركه من جده ماهو إلا انتاج لوسائطه المشتركة

ان المفكر أو العالم يستطيع أن يكون بمعزل عن المجتمع وهو سابح فى أرق طبقات التفكير واسماها . دون أن يشعر بشيء . أو يؤدى تفكيره إلى انتاج أى شيء . والفنان يمكنه أن يتصور أنه ينعم ويلتذ باجل وأجمل الاحلام . دون أن يتأثر بالعالم المحسوس . أما الرجل السياسى فيشترط فيه توافر الذكاء القادر على استيعاب الخاص والعام . والحقيقة والمجاز فى وقت واحد . وإلا فانه ان عجز عن التعميم كان قصير النظر . لانحصار عمله فى التقليد والعادة .

كذلك نرى أن السياسى ليس فى مقدوره كالعالم والمفكر والفنان أن يكتفى بما يصل اليه من النتائج العامة التى يستخلصها هؤلاء من ابحاثهم لان مهمته تقتضى بطبيعتها أن يفصل فى أى مسألة خاصة . معينة . ولذلك وجب عليه أن يلهم بالجزء والكل . وأن تؤدى أفكاره إلى أعمال . وهذا مايفرض على السياسى ألا يكون نظريا مضاربا . وأن يكون على العكس رجلا يتخذ من النظريات وسيلة لتحقيق العمل الذى هو غايته . وليس فى الامكان ذلك إلا إذا كانت أرادته حديدية دءوبا تمتاز بالاقدام والشجاعة . والثقة بالذات . والقدرة على التأثير فى المستضعفين والمترددين والعاجزين .

فالخصائص التى يجب أن تجتمع فى الرجل السياسى لتعمل فى وقت واحد وفى السرعة والطمأنينة والثقة التى تتطلبها لحظة من اللحظات . سواء لحظات الهدوء أو الخطر . هى إذن موهبة الملاحظة التفصيلية السريعة البعيدة الغور . وحضور الذاكرة الامينة التى تذكر فى دقة وفى غير تردد نتائج النظريات وسرعة الخاطر التى لا تؤسها الظروف المباغتة . والارادة الصلب . والقوة الجسمانية التى هي أساس كل عمل من الاعمال .

ولقد دلل التاريخ على أن جميع الصفات الروحية تنتقل كلها أو بعضها بالتوارث . وإذا قلنا بعضها فما ذلك إلا أنه قد يحصل أن الوحدة الاصلية تتكسر عند انتقالها إلى الخلف فلا يجنى منها غير شطر بسيط .

ولنضرب مثلا واحداً بانتقال نشاط الارادة . فانه كــكل نشاط روحى آخر يمكن أن ينتقل بالتوارث . فقد لاحظ فولتير ذلك عند مادرس آل جيز حيث قال : « ان الجسد . ذلك المولد الخالق . ينقل الصفات من الاب إلى الابن خلال عصور . فلقد كان آل بيوس شحا . لاتنثنى لهم عزيمة . وكان آل كانون قساة القلب دائماً . أما سلالة آل جيز فكانوا جميعاً مقاديم بواسل . هامين بالعمل دواما . فياضين باوقح كبرياء . وأقبح عجرفة . مع تأدب لاحد لجاذبيته وخداعة فالجميع . ابتداء من فرنسوا ده جيز إلى ذلك الذى ذهب من تلقاء نفسه إلى نابولى دون أن يدعوه الشعب وأقام ذاته ولى أمر عليه . كانوا فى صورة برزت فيها الشجاعة ورجاحة العقل لحد سما عن مستوى الرجــال

ده جيز من الرأس إلى العقب . وكذلك
دت أن قامتهم . ستة أقدام . أما
ميون والوقفات فواحدة . (راجع

الواجب إذا نحن درسنا التوارث فى
المركز السامى الرسمى شارة جدارة
كون عمل الرجل مقياساً لجدارته
فان مجد الآباء والاجداد وعلاقات
إلى حد بعيد وقد يكون كل شىء فى
خ النبلاء فى انجلترا وفرنسا وتاريخ

سياسيا ؟ أن هذا يتطلب أولا البحث فى النتائج

النفسية لقانون التوارث وقانون البيئة وثانياً استقصاء عمق تشكك سعد وتأثير هذا التشكك فى قوتيه العقلية والعصبية

النتائج النفسية لقانون التوارث

والآن يجدر بنا أن نبحث عما إذا كان جميع الاشكال التى يتشكل فيها النشاط الروحى تنتقل بالتوارث فى درجة واحـدة أو من الممكن ترتيبها حسب نظام معين من ناحية قوة انتقالها وضعفه . واجتنابا للخوض فى النظريات العديدة المعقدة نقول أن جميع أشكال النشاط تنتقل على الترتيب الآتى .

(١) ينتقل جزء عظيم من الغرائز التى يتألف منها مجموع الحياة النفسية .

ولقد أختلف العلماء فى تعريف الغريزة . ولـكن هناك تعاريف ثلاثة تواضع الفلاسفة والطبيعيون على إنها أدق التعاريف .

فاولها يقول : أن الغريزة عمل يقرب من أن يكون آليا لا أدخل للارادة فيه. ومن الراجح أنه خالو من التمييز . وتقوم به الحيوانات قصداً إلى الوصول إلى غرض معين باستخدام جسمها وأخلاقها

ويقول التعريف الثاني : أن الغريزة مرادف للرغبة والميل والنزعة ولهذا يتكلمون عن غريزة الخير والشر وغريزة السرقة والقتل — ألخ

أما التعريف الثـالث فانه يفهم الغريزة على أنها اسم يشتمل على جميع الاحداث الروحية التى تقع فى داخلية الحيوان . بما فيها جميع أشكال النشاط الفكرى التى انحطت عن صورة نشاط العقل الانسانى . وهذا راجع إلى الزعم بأن الحيوان يتمتع بحاسة الذكاء .

على أنه قد يكون هناك تعاريف أدق من تلك . فقد قال هارتمان « أن

الغريزة عمل يتفق وغرض وانما دون تمييز هـذا الغرض » . وقال دورين «أنها العمل الذى لا تستطيع اتمامه إلا بتعاون العادات مع مؤثر خارجى فى المجموعة العصبية ولادخل لا رادتنا فيه »

والغريزة أما مركبة أو بسيطة . فالمركبةهى مجموعة غرائز بسيطة والبسيطة هى احدى العادات

أما الفارق بين الغريزة والذكاء فيمكن تلخيصه فيما يلى .

(ا) الغريزة طبيعية . أى أنها خلقت فى الانسان قبل أى اختبارذاتى أما الذكاء فينمو فى بطء وبالجمع بين التجارب وتـكديسها .

(ب) تبلغ الغريزة حد الـكمال بوجه عامعنـد الخلقة . أما الذكاء فانه يتحسس ويجرب . ويفوت عليه الغرض . ويسقط فى الخطأ . ثم ينهض باصلاح

.من هنا يكون انعدام التمييز .
ولا الوسائل التى تستخدمها فى
يلوح أنه مقتادبالفكرة ولاشية
تطور ولا تتقدم ولا تتأخر ولا
مو ويضمر .ويكسب ويخسر .

.ت مطلقة فان تبديلها يقع على
ن بقاءها هو القاعدةو أما التغيير
فقاعدته التغيير والتبديل .
يست أداة فى مرونة العقل . فوق
الظروف ولا أن تلابسها كالعقل

الذى يلين ويتغير فى آلاف من الطرائق . ولـكن التجاريب قد دلت على أن الغريزة مرنة لحد ما عندما تؤثر فيها مؤثرات ذات بأس وسلطان ثابت . وهناك سببان هامان يحدثان هذا التغيير فى الغريزة وهما الوسط والمادة . فالجو والارض والغذاء والاخطار القاسية المحيطة هى المؤثرات التى تخضع لها طبيعة الانسان وتتمكن من تغيير غرائزه . وهذه التغييرات أو الغرائز المكتسبة تقر فى النفس وتنتقل بالوراثة (راجع التوارث النفسى لتيوفيل ريبو ص ٢٥ وما بعدها ومشكلة الحياة لبوردو)

فاذا اتبعنا القاعدة الخاصة بالغرائز الاصلية الطبيعية كان لنا أن نقول ان مجموعة غرائز العمدة ابراهيم زغلول قد انتقلت الى ابنه سعد الله زغلول . ولقد تقدم بيان غرائز الشيخ ابراهيم ضمن وصفه . ولا يمكن أن تكون نزاهة هذا الوصف موضع طعن لما كان بين عبد الله بك زغلول وسعد زغلول من جفاء . لان أخلاق سعد وأعماله وأقواله تؤيد هذا الوصف أبلغ تأييد واذا أردنا أن نطبق القاعدة الخاصة بالغرائز المكتسبة وجب أن نبحث فيما اذا كان قد طرأ على ابراهيم زغلول ظروف وأحوال وأهوال بدلت غرائزه الطبيعية وأقرت فى نفسه غرائز جديدة مكتسبة .

لقد بقى ابراهيم زغلول فى بلدته صغيراً وعاش عمدة كبيراً . فخضعت غرائزه لطبيعة عصره الاستبدادى . عصر عباس وسعيد واسماعيل . وفضلا عن هذا فانه لم يشترك فى واقعة من الوقائع الحربية التى بقى رجال مصر يذكرون مجدها ويتحدثون بعظمتها . ولم يعرف من المصريين هؤلاء القواد الذين تنقلوا بين الجبال والوهاد . ومجد الحروب من حولهم يطأطىء الرأس أمام مجدهم الطبيعى . والجلال يخفق اليهم فى خجل ليستجدى التقرب الى جلال نفوسهم . ولم يمش الشيخ ابراهيم

واقفات خلف ربى القلاع والحصون كأيام ذلك العاهل . ولم يسد فرنسا صمت كذلك الذى أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون عن الموت إبان حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات طبول الحرب . أما العيون فانها لم تعهد شمسا أظهر وأنقى من تلك التى جففت كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل . فلقبها الناس بشموسه فى معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون خلق تلك الشموس بمدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم تكن مستطيعة أن تتجهم إلا فى الايام التالية لمعاركه .

« فهذا الهواء الذى تشبعت به تلك السماوات النقية التى يذخر فى كبدها المجد الساطع . وتلألأ فيها الحديد اللامع . هو الهواء الذى استنشقه أطفال ذلك العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا قرابين فى مذبحة الامم بجملتهم يعتقدون أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة بعيد لا تدركه رصاصة . وإذا ما رأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله يتهاطل فى صفير وتدوية . قدروا له الخلود فى عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة نكران الذات أن فرضوا الموت لزاما فى المعارك الدموية . ذلك بأن الموت كان فى ذلك الحين حلوا مستعذبا جميلا رائعا فى ثوبه القرمزى الساخن ! لا يلوح أمامهم إلا كالآمال سواء بسواء . فاذا هو حصد السنابل الصغرى التى لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لانهم قد بلغوا حقاً سن الشيخوخة فى نظر الموت الذى لا يخطىء فى تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشاب كهل إذا مات فى الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية دروعا . وجميع النعوش تروساً . حتى انك ما كنت تعثر فى فرنسا على شيخ . فاما جثث هامدة وأما انصاف آلهة »

وأما أثر الثورة للحق والعدل والقانون أو للعظمة والمجد، التوارث فأننا نستطيع أن نستخلصه من كلمة عن أبناء الثورة الفرنسية الذين حاربوا في صفوف جيوش نابليون . وظروف هؤلاء لم تكن كظروف الشيخ ابراهيم زغلول العمدة . كما أن ظروف أبنائهم لم تكن كظروف سعد زغلول أثناء الحرب وبعده.

أبناء الثورة الفرنسية

« وضع الامهات الفرنسيات جيلا قوى المراس . نحيلا عصبيا بينما كان الآباء والاخوة يحاربون مع الامبراطور في المانيا. ولقد حملت الامهات هذا الجيل خلال معركتين . فتربى في المدارس على نغمات الطنبور . ونقر الطبول. آلاف مؤلفة من الاطفال . كانوا يرقبون بعضهم البعض بنظرات جللها الحزن وصمتها الكآبة وهم يحاولون فتل عضلاتهم الضئيلة . أما آباؤهم فكانوا يظهرون بغتة ليرفعوا أبناءهم إلى صدورهم وقد وشحها الذهب . وسطعت الاوسمة من فوقه. ويضمونهم بين أذرعهم . ويضموهم في حنو وشفقة داخل مهادهم ثم يمتطون صهوات جيادهم مولين وجوههم شطر الميدان .

« كان رجل واحد يعيش في أوروبا وقتئذ . أما باقي الخلائق فكانوا يبذلون قصارى الجهد في سبيل امتلاء رئتيهم بما استنشقه ذلك الرجل ثم تنفسه. ولقد كانت فرنسا في كل عام تهديه ثلثمائة الف شاب . ولعمرك إن هذا العدد كان الجزية التي تدفع لقيصر . وإذا لم يتسن له الحصول على هذا القطيع عجز من اقتفاء أثر حظه . بل انه كان الحرس الضروري له حتى يتمكن من اجتياز أوروبا.

« لم يمر بفرنسا في أي وقت سابق ليال تأرقت فيها الجفون كليالي هذا الرجل . وما انقضت عليها أيام أطل فيها على العالم شعب من الايامى والثكالى وهن

واقفات خلف ربى القلاع والحصون كأيام ذلك العاهل . ولم يسد فرنسا صمت كذلك الذى أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون عن الموت إبان حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات طبول الحرب . أما العيون فإنها لم تعهد شمسا أظهر وأنقى من تلك التى جففت كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل . فلقبها الناس بشموسه فى معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون خلق تلك الشموس بمدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم تكن مستطيعة أن تتجمع إلا فى الايام التالية لمعاركه .

« فهذا الهواء الذى تشبعت به تلك السماوات النقية التى بزغ فى كبدها المجد الساطع . وتلألأ فيها الحديد اللامع . هو الهواء الذى استنشقه أطفال ذلك العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا قرابين فى مذبحة للأمم جُلهم يعتقدون أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة . بعيد لا تدركه رصاصة . وإذا ما رأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله يتهاطل فى صفير وتدوية . قدروا له الخلود فى عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة نكران الذات أن فرضوا الموت لزاما فى المعارك الدموية . ذلك بأن الموت كان فى ذلك الحين حلوا مستعذبا جميلا رائعا فى ثوبه القرمزى الساخن ! لا يلوح أمامهم إلا كالأمل سواء بسواء . فإذا هو حصد السنابل الصغرى التى لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لأنهم قد بلغوا حقا سن الشيخوخة فى نظر الموت الذى لا يخطىء فى تقدير أعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشاب كهل إذا مات فى الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية دروعا . وجميع النعوش تروسا . حتى إنك ما كنت تعثر فى فرنسا على شيخ . فإما جثث هامدة وإما أنصاف آلهة »

وبعد أن سقط نابليون « جلس على انقاض العالم شبيبة حزينة مفكرة. فجميع هؤلاء الاطفال كانوا نقطا من دماء متقدة محرقة طفت على وجه الارض. أنهم ولدوا فى الحرب وللحرب ، فمر باحلامهم خلال خمسة عشر عاما صور ثلوج موسكو . وشمس الاهرام . وإذا كانوا لم يبارحوا مدنهم . إلا أنه قد ألقى إلى روعهم أن كل حلقة من حلقات الدفاع عن هذه المدن تؤدى إلى عاصمة من عواصم أوروبا . فارتسم فى أدمغتهم عوالم متعددة . ولكنهم كانوا ينظرون إلى البطحاء . ويرفعون رؤوسهم إلى السماء . ويديرونها فى الطرق والمنعطفات فلا يجدون إلا فراغا . »

وساد السكون . « ولكنهم مع ذلك قد رأوا رجلا يصعد المنبر . وبيده عقداً برم بين الملك والشعب . فاحاطوا به فى صمت . وأخذ هذا الرجل يقول « إن المجد شيء جميل . وكذلك الطمع فى الحرب . ولكن هناك ماهو أجمل ! هناك مانسميه الحرية »

« فرفع الاطفال هاماتهم . وذكروا اجدادهم الذين تكلموا عن الحرية فكان فى هذه الكلمة ماخفقت له قلوبهم كما تخفق للآمال الحلوة أو ما هو أبعد منها . وأخذتهم هزة عنيفة عند سماع هذه الكلمة . ولكنهم شاهدوا فى الطريق أثناء عودتهم ثلاث سلات بها ثلاثة صبية . اقتادوهم فى هذا الشكل إلى « كلامار » . وكل جريرتهم أنهم نطقوا بهذه الكلمة فى صوت جهورى فعلت شفاه الاطفال ابتسامة عجيبة أمام هذا المنظر المحزن .

« ولكن خطباء آخرين صعدوا المنبر وعددوا علنا نتائج المطامع ونادوا بأن المجد غالى الثمن . وابانوا فظائع الحرب . واستمروا طويلا يندددون بالاوهام الانسانية التى كانت تتساقط من حولهم تساقط أوراق الشجر فى الخريف .

والجميع يصفون ويفركون جباههم بأيديهم . وكأن حمى شديدة أيقظتهم . «
«وقصارى القول إنهم ترقبوا الظرف المناسب للانفجار . وكان ذلك عندما اجتازت أفكار «بيرون» وآراء «جيته» حدود فرنسا . «ذلك بأن صوغ أفكار عامة ما هو إلا تحويل ملح البارود إلى بارود . ولقد امتص العقل الساخر اللاذع . الذي تحلى به «جيته» العظيم ، عصير الفاكهة المحرمة كما يمتص الاسفنج روح الازهار . حتى خيل لمن لم يقرأه أنه جهل كل شيء . وحملت الفرقة عباد الله البؤساء على اجنحتها إلى هاوية الشك العام كما تحمل الرياح الاتربة»

(راجع الفصل الثاني من اعترافات موسيه)

فهل الظروف التي اكتنفت الشيخ ابراهيم زغلول كانت تؤدى به إلى أن يغضب للكرامة والشرف أم كانت من شأنها أن تغير من غرائزه كما غيرت ظروف الثورة الفرنسية وظروف حروبات نابليون من غرائز الفرنسيين؟ وهل كان لها في نفس سعد أيام حداثته ما كان لها في نفوس ابناء فرنسا؟ إن الشيخ ابراهيم زغلول لم يرفع عينه عن الآلة التي كانت تكرهه على جمع الضرائب ولم العشور . ولا عن السياط التي سخره في سلخ جلود العباد حتى ينقذ جلد نفسه . ولم يترب سعد في طفولته على نغمات الانتصارات والاقدام والبطولة حتى تبرز فيه غريزة الابطال فيحق له أن يدعى أنه ابن الثورة الذي يجب أن يقود الثورة ويحكم ليكون أبا الثورة على القديم والثورة للاستقلال والحرية وتكوين الوحدة القومية وأغاني سعد ابن العمدة وعاش عمدة يرهب ولا يستحي . ويخاف ولا يرعوى . ولقد ظهرت آثار ذلك في تردده وتشككه وفي استخدام سلطان كان كافياً لاحياء أمة ميتة فاجهز به على أمة حية بعد أن سخره في مصلحته . .

مواهب الملاحظة

بالحواس الخمس

ان مواهب الملاحظة بالحواس الخمس تتسلسل بالتوارث مع مختلف صور النشاط المرتبطة بها ارتباطاً مباشرا . ويظهر أن هذه القوة كانت قد انطفأت في الشيخ ابراهيم زغلول بحكم الوسط المصرى . والا فلو كانت الحال غير ذلك لوجدنا سعداً قد حذق حاسة التعمق بنظراته لسبر غور الاسرار الانسانية النفسية ولعرف الدفين فى القلوب التى أحاطت به أو استند عليها فى بعض المواقف . ولكنه كان يلقى بنظراته على الشخصيات من حوله فاذا بهذه النظرات تتراءى فى غير اتساع ولا عمق . ولذلك فانها كانت نظرات خائبة لم تأخذ إلا صورة ماارتسم على الوجه دون أن تنفذ فى غير شفقة الى الاعماق لتنقل منها صورة طبق حالة النفس . حتى يقارن بين الصورتين ويصدر حكماً صحيحاً على الشخصية التى فحصها كى يبنى على أساس هذا الحكم علاقاته بها ويحدد طريقة العمل معها أو فاته .

العواطف

أما العواطف فانها تنتقل فى قوة اذا كانت بسيطة . أى خاضعة للجسم . وتنتقل فى ضعف اذا كانت مركبة . أى لها ارتباط بالروح . أما اذا كانت خاضعة لتكويننا الجسدى والعقلى معاً أى اذا تألف منها مايسمى بالخلق . فان انتقالها يكون وسطاً بين هذا وذاك .

وتتجلى نتيجة وراثة العواطف فى شكل مزدوج . فتارة تجعل من الممكن انتاج عواطف مركبة عن طريق تكديس العواطف البسيطة . وتارة أخرى تجنح الى الماضى ونحن اليه فتكشف عن جوهره بدافع عداء الوسط المحيط .

ذلك بأن فى النفس غرائز وحشية وميولا رحالة ورغبات دموية جامحة لا يقهرها الزمن ولا يخضعها. قد اختفت فى قرارة كياننا حية . ولكن مغمضة الطرف. وعلى أهبة التجلى دائماً .

ولكن آثار سعد الكتابية لا تمكننا من معرفة عواطفه . لانها جميعاً متضاربة . متباينة حشوها التردد والحيرة والزعزعة والتشكك . وكل هذا الصراع راجع طبعاً الى الجوهر الفزع الرعديد الذى انحدر منه سعد. ويكفى التولد الرعدة أن سعيد باشا كان يهدم شيخ البلد لتستره على نفر القرعة . فاذا نحن عثرنا فى صفحة من أقوال سعد على آية وطنيـة ، عثرنا فى أخرى على عشر آيات مروق وذبذبة أو تراجع عن الصراط المستقيم ونكول وحنث عظيم .

أما ميوله الدموية الرحالة الجامحة التى كمنت فى نفسه بحكم الغرائز فانها لم تقو على رفع ما فوقها من الرماد فى أدق المآزق الحرجة والظروف العصيبة التى عصفت بزعامته وأبعدت الحكم والسيادة عنه ولكن هذه الميول ظهرت إبان جبروته وسطوته ساعة إذ كان يقهقه وقت هجوم الغوغاء على خصومه السياسيين العزل ليهدموا دورهم ويحرقوا بيوتهم وينهبوا أموالهم وينتزعوا أرواحهم دون أن يعقب على هذه القهقهة إلا بقوله : «أتريدون أن أحمى خصومى » ؟ ولقد كان له الحق فى ذلك إذ لم يستكن فى أعماقه غير غدر الوحشية دون اقدامها وجرأتها. ولعمرك انها حالة مناقضة لطبيعة الانسانية تلك التى لا تثير الوحشية ساعة الكارثة وانما تهتاجها وقت النعمة !!

وفى الحق أن هذا هو مسلك العبـدة . يقبع فى عقر داره ساعة نزول المصاب . أو يهطع إلى المأمور بتمسح بالاعتاب . وعلى المنصب يسيل اللعاب. وإذا ما قدر غدر. وعبس للاهلين وبسر . وإذا كان سعد لم يكن فى ظاهره بربريا وحشياً متجرداً من الرحمة والانسانية إلا أنه كان رجلا قاسياً على أهله ووطنه. لا يعرف الدعة والبشاشـة إلا لعدوه . ولا ينسلك الحب فى قلبه إلا

المادة . وإلا للمنصب . وأما من ناحية العواطف والاحساسات فلا يقل سعد عن والده . حقد ومحاباة . ولذلك فقد كان ثمن بطولته دهورة الامة وتحطيم قوتها المعنوية لسنوات عديدة وهذا ما لا يمكن أن تتسامح فيه الام والاجيال

في الذكاء

ينتقل الذكاء الفطرى بالوراثة . ولكنه كلما نما بالاكتساب ازداد انتقاله بالتوارث صعوبة . إلا أنه ينتقل على أى حال إلى حد ما . والشيخ ابراهيم زغلول كان حاد الذكاء . ولولا ذلك لما عين عمدة فى تلك الاوقات التى تحتاج إلى ذكاء مفرط ومهارة ونعومة ولين ليبقى العمدة فى منصبه يوما أو بعض يوم . فكيف بمن قالوا أنه بقى عمدة عهداً طويلا ؟

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن عمل الذكاء دائما ما يتغلب على عمل الغريزة . وهذا أثر من آثار المقاصة . فكل عضو تزداد قوته تؤدى هذه الزيادة الى اضعاف قوة عضو آخر . فذكاء سعد الوراثى والمكتسب قد أضعف نفسيته وأفقده ميزات كثيرة سنعرفها فيما بعد كما سنعرف علميا عند الكلام عن التأثر الدينى وتحول سعد الى مذهب الشافعى أن هذا الذكاء المفرط كان سبب ضعفه سياسيا

وفى هذه الحالة ترى التوارث يقوم بمهمتين . فبالنسبة للذكاء نراه عاملا على الاحتفاظ بما يكسبه كل جيل من الاجيال . ويكدسه ليكون هذا المكسب وسيلة لمكاسب اخرى أوسع نطاقا كالربح المركب . يزداد رأس ماله فيزداد ربحه على التوالى . أما بالنسبة للغريزة . فان التوارث يعمل على أستمالتها إلى الضعف . ويضمن استمرار وقوع هذا الضعف على توالى الازمان . وبما أن قانون التوارث يجعل استرداد ما تفقده الغريزة متعذراً فانه يعد لحظ جديد من خسارتها وضعفها . وأذن فقانون الوراثة يؤدى بحركة واحدة إلى نتائج متعارضة.

ولهذا رأينا في سعد أن ما اكتسبه عن والده من الذكاء الفطري قد نما نموا قويا بفضل تربيته والبيئة التي تعلم فيها . وهي بيئة اختلفت كل الاختلاف من الناحية العلمية والأدبية والفنية عن بيئة أبيه

العادات والذاكرة

لقد اختلف العلماء فيما له مساس بانتقال العادات والذاكرة بالوراثة ولكن يكفينا أن نقول هنا أن سعداً كان ينسى في يومه ما عمله في أمسه . وكانت تخونه البديهة ساعة المدلهمات والنوازل والبوائق وتطاحن الأغراض وتنازع المطامع. وهذا واضح في أعماله وأقواله . كما هو واضح في الاضطراب البارز في جميع المحاول التي كان يبتكرها ساعة المأزق . خذ مثلا . « هل عندكم تجريدة تدلوني على السبيل؟ » مع أنه تمسك بحق مصر في السودان قبل ذلك بقليل . ثم التنفيذ شيء والاستنكار شيء آخر . والقضية المصرية دولية . ولأجانبها مصالح لا تتعارض مع الاستقلال وسنفصل ذلك في باب التشكك.

قانون الملابسة

وإذا كان لا نزاع في تأثر الجنين بغرائز الوالدين إلا أن هناك من العوامل ماله من السلطان القوي المعرقل لقانون التوارث بعد الوضع. وقد حاول « هيكيل » أن يرتب هذه المؤثرات تحت عنوان عام هو « قانون الملابسة » ورد هذه العوامل إلى الغذاء والهضم بأوسع المعاني (راجع تاريخ الخليقة الطبيعية لهيكيل جزء ٩). وهذا ما سنشير إليه عند بيان حياة سعد بالأزهر ويكفي هنا أن نقول اننا دائما ما نشهد مصرع الحرية والاختيار في صورة أبشع مما يمكن تصورها عندما ننظر إلى هذا النضال المستمر في أعماقنا بين الأخلاق الفردية والأخلاق النوعية . أي بين الشخصية والتوارث . ولكن النفس

يأبون التسليم بذلك وينسون كثيراً أن للوراثة سلطاناً على تكويننا وأخلاقنا أقوى من نفوذ المؤثرات الخارجية مادية كانت أو أدبية. ولكن ينسون ذلك كل النسيان اذا هم لم يعتمدوا على التجاريب. واذن فالوراثة قد قتلت الحرية في أعمال [illegible] . ولذلك كان جباراً أمام الضعفاء . وأداة ذليلة للهدم في يد الاقوياء. وتاريخه فياض بالادلة القاطعة على صحة هذه الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من خلفها ولا من بين يديها . وسنفصل هذه الآيات المعجزات تفصيلا وافيا فيما بعد.

قانون البيئة

وأثره في التوارث الخاص

لقد عني أخيراً علماء الطبيعة والنفس والاجناس والتاريخ بنفوذ الوسط الطبيعي والاقليم وتأثير الجو والهواء والارض والماء والنظام الغذائي . وطبيعة الاطعمة والمشروبات وكل ما هو طبيعي في جسم الانسان وكيف لا تصل الاحساسات العمياء إلى مواطن الضمير وانما تدخل بلا انقطاع في [illegible] بمعاونة الجو على تكوين مايسمى بالطبع والخلق ولا حاجة بنا إلى شرح ذلك فله كتبه الخاصة .

أما نفوذ التربية فمثله كمثل سلطان الطبيعة. لان التربية ما هي الا وسط أدبي ينتهي إلى أن يخلق في الانسان عادة. بل عادات. ذلك بأن معنى التربية الصحيحة ليس في دروس الآباء والامهات والاساتذه فحسب . وانما هو أيضا في العادات والعقائد الدينية . والمثالات والاحاديث العادية والمبالغة . وهي في جملتها مجموعة من النفوذ الصامت. والمؤثرات الخفية التي تعمل في العقل كما تعمل،

المرئيات في الجسم . فتؤدي بمعنها إلى تربيتنا. أي إلى اكتساب عادات.
على أن الواجب يقضي بأن لا نعتبر التربية من العوامل الانشائية المطلقة وأن نحلها مكانهـا المشروع في عالم الابداع والخلق مع تغلب التوارث عليها. ذلك بأن وجود التوارث سابق على وجود التربية . وتاريخ حياة أغلب العظماء شاهد على ذلك . كما أن حياة المفكرين والفنانين والمخترعين تدل على أن التربية ضئيلة القيمة إذا قيس اثرها باثر التوارث . فاذا قيل أن سلطان التربية كان مطلقا وحاسما في بعض الطبائع كان هذا القول حقا . ولـكنه لا يكون كذلك في المجموع .

فالتربية وسيله صناعية في مبدئها . تخلق فينا طبيعة ثانية تلوح في نظرنا أنها جبت الجوهر . ولـكنها لا تصل إلى هذه القوة في أغلب الاحيان . فكم من رجال تحلوا بهذه التربية ولـكنها لم تهدم غرائزهم؟ فهي إذن ليست الادهانا لماعا ينهار فتيتا عند أول صدمة . لتظهر الطبيعة الاصلية بجمها ووحشيتها . أو فضائلها وقناعتها. ولقد يدهش الانسان في بعض الاحيان عندما يرى أن شعوبا بلغت شأوا بعيدا من المدنية والوداعة والانسانية وحب الخير في سيادة السلام لاتلبث أن تنقلب عقب اعلان الحرب. أو عند اصطدام مطامعها بحقوق الضعفاء . وحوشا كاشرة تهبط إلى أحط دركات القسوة والوحشية . ولـكنه إذا ما فكر مليا علم أن الحرب ما هي إلا عود لمبدأ الخليقة . وسيادة الهمجية والوحشية. وما وظيفة هذه الحالة إلا أن تبعث إلى الحياة تلك الطبيعة البشرية المتلائمة معها . والسابقة على أي ثقافة . وتخرجها من مكمنها في حماستها . وبطولتها . وعبادتها للقوة. والمطامع الاشعبية . ولذلك قد حق قول كارليل . «ليست المدنية الاغلافا يستر طبيعة الانسان الوحشية وهي تحترق بنار جهنمية»
فاذا كان لزاما علينا ألا ننسى كل ذلك. فمن الواجب في الوقت نفسه أن نعلم

أن التربية وأن لم تكن كل شيء إلا أنها قطعت بالعالم أشواطاً بعيدة في المدنية والرقي حتى وصلت بنا إلى ما نحن عليه من رفاهة وترف . فهي لذلك عامل لا يستهان به . ومن الممكن أن تخمد أنفاس الغرائز إلى حين .

ففي أي بيئة تربى سعد ؟ وهل كان في مقدور هذه البيئة أن تؤثر في نفسيته وغرائزه حتى تغير معالمها وتبدلها أطواراً ؟

في الكتاب

لقد تلقى سعد زغلول العلوم الاولية في كتاب بقرية ابيانا . ومعلمو الكتاتيب إذا امتازوا عن تلاميذهم فبحفظ القرآن عن ظهر قلب دون فهم معانيه وحكمه وسمو مواعظه وجليل آدابه . فهم اذن عاجزون عن أن يبثوا الفضائل والخلق الكريم في نفوس الاطفال . قاصرون عن تقويم أعوجاجهم الخلقي وإنتزاع الرذائل الموروثة . أضف إلى هذا أن «فقي» الناحية تابع للعمدة ومن رعاياه . فهو بهذه المثابة خادم أمين للعمدة ولابناء العمدة . لا يستطيع أن يقاوم لهم هوى . أو يصرع لهم إرادة . أو يلاحظ عليهم تنكب الصراط المستقيم . ولذلك لا يمكن أن تستنتج إلا أن وسط الكتاب أن لم يكن أتعس من بيئة بيت العمدة بحكم مايجمع من شتات ألوان الاهالي ومزاولة «المقرعة والفلقة» فانه على الاقل متجانس معها . وعاجز عن أن يؤثر في غرائز سعد تأثيراً يرفعه عن المستوى الخلقي لابناء العمد في ذلك العهد السحيق .

لقد بقي سعد في بلده يتعلم العلوم الاولية الى سن السادسة عشرة من عمره . فهو إذن كان قد تكون وشب في هذا الوسط الذي يزيد الغرائز رسوخا أن لم يرجع بها القهقري ويدهورها من جراء الاختلاط بمن هم أحط من مستوى دار العمدة . ثم انتقل إلى القاهرة لتلقي العلم في الازهر .

فهل كان الازهر والحياة التي يتطلبها التحصيل في الازهر ... ومحيطه وتدهور التدريس فيه مما يساعد على السمو بغرائز ابن العمدة ؟

في الازهر

لم يكن وسط الازهر في مجموعه بأرقى من وسط «دوار» العمدة ... المعيشة التي تفرض على الازهري بأرغد مما هي عليه في منزل العمدة ... كان سعد قد حضر العلم في الازهر على علماء أعلام كالمغفور لهم الشيخ ... العباسي والشيخ احمد الرفاعي أبو النجا الشرقاوي . والشيخ محمد عبده ... ان هؤلاء ما كانوا أساتذة له خاصة . ولا كان اجتماعهم به على التوالي ... دا كان قد أكثر من التردد على الشيخ محمد عبده كبيراً . فان عقيدة هذا ... اذ لم تكن خالصة من الشوائب السياسية . وإذن فقد كان سعد ككل أزهري يحضر حلقة الدرس ثم ينصرف مع اخوانه الى وكره . واذا خرج للرياضة والنزهة فالى أقرب بقعة منه . الى جبانة المجاورين . ولكن سنه ما كانت تساعده على أن يعتبر ويستعبر أمام طي الدنيا ونشرها . وانما ساعدته على أن يشب متسولا ويترعرع متسولا لينادي بأن في ميدان التسول متسعا للجميع حتى انتقلت العدوى الى الامة جمعاء فأصبحت تستنكف حقها في كبرياء وعظمة هي عين الخزي القومي . وأي وكر كان يأوي اليه سعد ؟ وأية حياة تلك التي عاشها ؟ ان حياة الازهري في غابر الازمان ما كانت تدعو الى المنافسة في سبيل التمتع بها . ولا كانت تغري على الاندماج في زمرتها . ويكفي أن يكون الانسان سمع وصفها من فم الاستاذ ابراهيم الهلباوي بك ليجزم بأنها حياة تعطل عن السمو بالاحساسات والعواطف والعقل . وتعوق نبل القلب عن الاستظهار على نقيضه . سواء أطبقنا قواعد قانون البيئة أو قواعد قانون الملابسة الخاص بالغذاء والهضم

فلا الجو ولا الهواء ولا الماء ولا النظام الغذائى وطبيعة الاطعمة والمشروبات ولا الاحساسات الأزهرية التى كانت تدخل بلا انقطاع فى جسد سعد مما يستطيع أن يعاون على تكوين طبع جديد أو خلق جديد يغير خلق ابن العمدة وطبع ابن العمدة أو يزيل أثر الرعدة المتخلفة من «الفلقة والمقرعة».

أما التربية المدرسية الازهرية . أو بعبارة أصح أما الوسط الادبى الازهرى الذى كان فى جملته مجموعة من النفوذ الصامت والمؤثرات الخفية التى تعمل فى العقل كما تعمل المرئيات بالجسم فانها قد أدت بصمتها إلى تربيته أى إلى اكتساب عادات . ولكنها لم تكن عادات تحمل على استئصال نزعات العمدية . بل كانت عادات تنمى نزغات المستبد الضعيف . ولا سيما إذا راعينا أن علوم الازهر ليست أصليا مما ينمى المدارك . كالرياضة والفلسفة والتاريخ الخ

لذلك تخرج سعد من الازهر مطبوعا بطابع العمدية وبقى طوال حياته كذلك إذ كان قد اكتمل وقتئذ سن النضوج . وإذا كان الوسط التالى لوسط الازهر قد غير فيه أو طور ، فانما رماد غشى النار لا يلبث أن يتطاير إذا ما عصفت عاصفة غيظ أو حقد.

سعد بعد تخرجه من الازهر

لقد بقى سعد نقمة للدانين . وغمة للقاصين . وغصة للمعارضين . وألعوبة فى يد الغاوين . وشقاء السقيم . والداعى إلى سراط غير مستقيم . والدليل إلى البلاء المقيم . والمروج لمذاب يوم عقيم . سالك مسلك سنة الاقوياء . وهاضم حقوق الضعفاء . ومقيم شعار دين الاذلاء وشرائعهم . ومريد شوارعهم . ووارد مشارعهم . ليس لقلبه مفتاح . ولا لبصيرته مصباح اتخذ الحق ظهريا . ونبذه نسيا منسيا . لا تهون الدنيا عليه حتى يجعلها

وراءه . وإنما هي عزيزة عليه فيحلها مكان إمامه . ولا يتصور الموت في أي وقت أمامه. لذلك فانه ما كان يعقد بالعدل عقيدته . ولا يطوى على الاحسان والفضل طويته . إذا ساد لا يعتدل الجائف . ولا يقصر الحائف . ولا يأمن الخائف. ترعد فرائص العزل من رواعده . وتبرق أبصارهم من بوارقه . وتصعق الضعفاء صواعقه . انه كان للاولياء والخصوم الشرفاء كالغيث الغادي . وعلى المخاصين الاطهار الاتقياء كالليث العادي. يعترف أعداء الحق بعوارفه وفضله . ويغترف الاذلاء والمستضعفون من نواله وبذله . بينما لا يبذل أي جهد . في رعاية عهد. ولا يتعافى على كدر الزمان . ولا يتوافى على غدر الحدثان . يجهل انه والناس كاليدين. وأن اليمين لا تستعين إلا باليمين . يحول مواثيقه على الاحوال . واختلاف الاحوال . لا هو لاخوانه عدة عند الشدة. ولا عصرة لدى العسرة.

يخالفك ولا يحالفك. ويصاديك ولا يصافيك. ويفارقك ولا يرافقك . ويكاشرك ولا يعاشرك. أبداً لا يكون لك نافعا. ولا عنك دافعا. إذا حضر أثنى ومدح . وإذا غاب عاب واغتاب وقدح . ظاهره خل موافق . وباطنه سرطان نافق. يزنك بالميزان الخفيف . ويقومك بالثمن الطفيف. همته هامدة . ويده جامدة . اذا احتاج تخاضع وتواضع . واذا استغنى تكبر وتجبر . لا يتبصر ولا يتصبر . ولا يعرف ان يتخذ من القناعة صناعة. ولا يرضى بالمال اليسير. حتى أمس أسيراً للمياسير . متناقض . يكتب بالمسك ولا يختم. كما يقولون . بالعنبر . ويورق بالذهب. ولا يثمر بالجوهر . جبان الى مفره اسرع من الماء المتدفق الى مقره . لم يكن لعنان هواه املك . فهوى بالمركب اللذيذ الى المهلك . نيته معلولة. وعقيدته مدخولة . ظاهره يسر الناظر . وباطنه يسيء الخابر . حذق التلفيق والتنميق. ومرد على الاختلاق والتزويق. كلامه من عناصر نفسه ولذلك فلا تعرف الحقيقة أن تمشي في مناكبه. ويخشى الصدق أن يتردد في مذاهبه. واذا

حارب فبسيف كليل لا يقطع. وإذا هم ليضرب يرتد ويرجع. فترى اليراعة الجوفاء اثبت منه قوة. وأشد منة. اذا ذكرت السيوف لمس رأسه هل ذهب؟ وإذا نقلت الانباء خبراً عن بريق الرماح مس جنبيه هل ثقب؟ وإذا جاء حديث المدفع غاب عن صوابه وتشنج. وإن دوى جمد في مكانه أو كان وكأنه قد فلج. وسقط من قطع في كل ذلك في مكانه.

مع العرابيين

ترك الشيخ سعد زغلول الازهر وعين بقلم تحرير الوقائع الرسمية بالداخلية واستمر فيها سنة ثم نقل إلى نظارة الداخلية بوظيفة معاون أثناء وزارة محمود سامي. ثم عين ناظراً لقلم قضايا مديرية الجيزة إبان اشتداد الثورة العسكرية. واستمر في هذه الوظيفة إلى أن قمت الثورة ورفت. ومن هنا يتضح أنه كان مشايعا للعرابيين وأنه كان خطيبا من خطبائهم المفوهين وخادم أغراضهم الاولين والا لما رقى بهذه السرعة إلى ناظر قلم قضايا دون مؤهلات حقوقية على النحو الذى كان سعد يحابي به السعديين. فما هي عوامل هذا الوسط التي أثرت في نفسه وما هو مدى تأثيرها في غرائزه؟. وهل سمت به عن مستوى العهد أم هوت به الى حضيض آخر؟

ليست الثورة العسكرية بنت اليوم الذى ظهر فيه عرابي على رأسها. وإنما هي بنت اليوم الذى هم فيه الضباط لمقاومة الوزارة المختلطة التي أقامت في سنة ١٨٧٨ صرح النفوذ الاجنبي في مصر. ولقد كانت هذه الثورة في بدايتها أصلب عوداً وأنبل مقصداً. وأشرف غاية. وأحزم قيادة. وأبعد عن الشهوة الخاصة منها في الايام التي تسلط عليها عرابي وانضم اليها سعد بعد أن أتم التحصيل في

الازهر . حيث كانت قد تطورت من ثورة قومية الى ثورة عرابية لا فكرة عامة لها ولا غرض أسمى ترمى إلى تحقيقه . وإنما كانت أنشودتها الوظائف العسكرية أولا . والوزارة أخيراً . كما تطورت ثورة سنة ١٩١٩ من ثورة وطنية الى ثورة سعدية . وانتهت بأن صارت ثورة وظائف ووزارات .

ولقد تطور هاتان الثورتان لعامل نفسى واحد هو الشهوة الفردية التى ازدوجت بعامل فكرى هو التشكك . فكانت النتيجة واحدة : تدهور عام فكارثة استسلام . إذ كان العرابيون فى نهاية أيامهم قوماً ترددوا وتشككوا فى الطريقة التى يحققون بها مصالحهم الخاصة . ولذلك فانهم أسلموا قيادهم للخزى والعار فيما اصطلح على تسميته بمعركة التل الكبير . بعد أن ضمنت انجلترا لعرابى عزل الخديو توفيق . بينما الانجليز هم الذين فشلوا أمام كفر الدوار وكان فى المقدور عسكريا الحاق الفشل بهم نهائيا بردم القناة واطلاق المياه واغراق الشرقية ولقد انغمس سعد فى معمان هذا التردد فطبع عليه وتأثر به وبقى فى جميع أدواره وظائفه وحياته المقول إنها سياسية كالريشة فى مهب الريح لا يستقر على حال .

إننا لسنا أشفق على سعد من نفسه . ولقد أعلن جهرة وفى محضر الجمعية التشريعية بتاريخ ١٦ يونيه سنة ١٩١٤ أنه رجل متردد متشكك . متلون الشعور والعقائد حسب المنصب . ووفاق الظروف . فاذا كان قد اكتسب شيئاً من الثورة العرابية . فانما يكون قد اكتسب تدهوراً فى العزيمة . وانحطاطاً فى القوى القادرة على تكييف الادراك . وتكوين الاحساسات . وهذا ما سنبينه تفصيلا عند الكلام عن التشكك .

بعد الثورة العرابية

أقصى سعد عن وظيفته بعد اخماد الثورة العرابية فاتخذ المحاماة أمام المحاكم الملغاة مهنته . ثم اتهم فيما بعد بانضمامه إلى حزب الانتقام وهو الحزب الذى تأسس

في مصر عقب قيام الثورة العرابية . ولكنه برىء بعد سجنه مدة أيام ولما تشكلت المحاكم الأهلية انضم إلى المرحوم حسين صقر وشتغلا سويا أمامها ولما مات وضع يده على المكتب ولهذا الشأن حكاية قاسية . ولكن المحاماة في ذلك الحين لم تكن مما تؤثر في النفس أي تأثير . أو تحدث فيها أي انقلاب بحكم وسطها ووسط المعاصرين . إلا أن مطامع سعد كانت كبيرة . ولذلك تدخل في المقامات العالية ليتودد إلى الدوائر الانجليزية . وانخرط في سلك ندماء المرحومة الاميرة نازلي هانم افندي . فكانت حبل اتصاله الوثيق بالساسة الانجليز من جهة . وبمصطفى فهمي باشا من جهة أخرى . وتم تعيينه في السلك القضائي .

تقرب سعد الى الانجليز وتزلف . وارتمى في أحضانهم وتمرغ . وكان صهره مصطفى فهمي رئيس الوزارة المطواع خير معين له على هذا التمرغ حتى احتضنه الانجليز وشملوه برعايتهم واتخذوه وزيرهم يشد أزر دنلوب في محاربة العلم والتعليم واللغة العربية والكفاءات والوطنية . والاحساس المصري والمصالح المصرية الاولية . والحريات بمختلف أنواعها.

فمنذ سنة ١٨٩٠ حتى سنة ١٩١٣ والانجليز يحتضنون سعداً . ومنذ سنة ١٩١٣ حتى ١٩١٨ وهم يمونونه ويواسونه . ومنذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٧ وهم يداعبونه ويدللونه حتى انطبع نهائيـا بطابعهم . واسلم زمام نفسه اليهم وقياد زعامته لمشيئتهم .

لقد قلنا هذا القول وأشد منه لسعد في حياته . بل واتهمناه بالخيانة إذا تحت تهمة الخيانة التي أسندها لعدلي باشا . ولقد قدمنا للمحاكمة وصدر الحكم ببراءتنا وتأييد وجهة نظرنا وهاهي جرائد الوفد تعترف اليوم بالجريمة العظمى في غير خجل ولا استحياء . وفي معرض الاستجداء المسنون في قالب التعيير باسداء المعروف للانجليز والتساهل معهم والتسليم لهم في حق الوطن

ولعمرك أنه لتعبير بمثابة الشهادة القاطعة على جريمة الخيانة العظمى

قالت صحيفة الجهاد الصادرة بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان (السياسة البريطانية عدو مصر اللدود) ضمن ما قالت ما يأتي . « صحا صحيحتنا في هذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التي طالما حبسناها في صدورنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسة وترقب الظروف)

« ولكن حبل هذه المصابرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول . وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح » .

وإذا نحن ذكرنا هذا القول فإنما على سبيل التمثيل لا الحصر. إذ ليس المقام مقام التدليل على التهم الصحيحة وإنما مقام استشهاد على حالة نفسية عقلية مكتسبة بباعث الوسط فتجاءت مدعمة للغريزة الأصلية في سعد . وهي غريزة التسليم للقوي. والتقهقر أمام الباطل . أو طلائه بدهان يظهره في صورة الحق تطمينا للنفس وترويجا لها .

فاختلاط سعد بالأنجليز . واحتكاكه الدائم بهم وبمستشاريهم . وتعوده سماع كلامهم والاصغاء اليه وتنفيذه قد ألان في ابن العمدة لينه الطبيعي . وأرخى من رخاوته الغريزية وأطلق يده في انتهاب حق الغير ليجود به ويسخو تعليلا للنفس باستبقاء هيبة العمدة وأبهة العمدة. وضاعف من زهده في خدمة المصلحة العامة التي لا يعرفها العمدة ولا ابن العمدة إلا كرها منه أو تظاهرا بأدائها احتفاظا بنفسه أو مركزه أو زعامته على أهل قريته .

هل هناك عناصر أخرى

غيرت من غرائز سعد ؟

كان سعد من تلاميذ الشيخ محمد عبده . ولكن الشيخ محمد عبده كان رجلا مصلحا اجتماعيا أو دينيا إذا صدقنا اللورد كرومر . دون أن يكون مصلحا سياسيا كما يدل على ذلك جميع مواقفه ومذكراته ومطالبه الخاصة بالحكم الذاتى . ولذلك لم يكن فى وسعه أن يخلق زعيما سياسيا . فهل هناك وسط احتك به سعد غير وسط المنزل والكتاب والازهر والوظيفة ؟ وإذا كان فهل كان هذا الوسط على قوة تستطيع أن تؤثر فى أعماق سعد انبعثت منها غرائز بطش الضعيف بالأضعف . ورعدة الواهن أمام القوى . وطلب الطعن والنزال إذا ماخلا سعد إلى نفسه ؟

نعم هناك الرأى العام . ولكن هل كان هذا الرأى العام قد تكون أيام شباب سعد بصفة جدية صالحة لأن تقدم أصلح غذاء لتقويم النفس . وتهذيب الخلق وتثقيف العقل . وتدعيم الارادة . وتطهير الضمير ؟

لقد شهد سعد أول ماشهد نهاية ثورة . وفترة انتقال حف كلاهما المتاعب والطنين والاعياء والصخب والعجز والنوم .

قبيل نهاية الثورة

لقد ظهر سعد فوق خشبة المسرح فى عهد ملىء بالحوادث الجسام فياض بشارات التدهور التى ارتسمت فى أفق الغيب الساخر لتنبىء بأن مصير مصر على أهبة الانقلاب . وتمهد لتوطيد دعائم الحكم الاجنبى فى وادى النيل .

كان مظهر العرابيين وقتئذ غير مخبرهم . انهم كانوا يلوحون فى صف مصر

بينما كانت بواكير المصالح الخاصة الخفية تغلى لتقضى على الاطاحة بالصدامة.
ورغماً من أنه قد كان في مقدور أغلبية النواب الذين أيدوا عرابي أن يؤيدوا
كائناً من كان بنفس الحماس والغيرة والعقيدة المصطنعة والثقة الدفعية. ورغماً
من أن هذه الاغلبية لم تجمع صفوفها حول فكرة معينة أو برنامج معين .
بل كانت حائرة مترددة متشككة. لها في كل يوم شأن . وفي كل يوم ميل
وشهوة . فان ارتباط بعضها ببعضهم لم يتوثق إلا لمؤازرتهم ويدوف تحقيقه
بمصادقة الوزارة أو بالانخراط في سلك خصومها . كواقع اليوم وأمس ولقد
سمعنا المصريين والاجانب يتحدثون عن العرابيين والخديويين. أي عن حزبين.

ولكن الواقع كان غرض سلطانا على أن ليس ثم فوارق محدّية بين
المعارضين والحكوميين أي بين المؤيدين للخديو والمناصرين لعرابي فالفريقان
قد امتازوا بالرغبة الشديدة تجلت في الشهوات التي استبعدتهم عن الحكم
ثم فرضت عليهم السعي في سبيل استعادته .

فالشأن بالامس كان لامحالة كغير شأن اليوم . عقول دائماً قلقة مضطربة
دون أن تقوى على أي عمل أو تستطيع استخدام ما أوتيت من مواهب
لتحري أصل الداء الظاهر والوصول الى حقيقته لعلاجه . والواقع أن كل شيء
في مصر قد قام بين رجال يمكن أن يقال انهم جميعاً من مستوى واحد .
ومصلحتهم النهائية واحدة . هي في استبعاد من سما عليهم ومن دونهم عن
الوظائف العمومية . وهكذا فان الطبقة المتوسطة سادت وحكمت. ومن الراجح
أن لا يفهم جيلنا كيف ظهرت حكومة عرابي في نهاية أمرها بمظهر الشركة
الصناعية تجري أعمالها وراء تحقيق الاستغلال الذي يرغب فيه مساهموها .
كما ان من الراجح أن يعجز الجيل القابل عن أن يتصور كيف نقل سعد هذه
الخطة وطبقها. وكيف اتبعتها من بعده الوزارات المختلفة .

بلاغة الخطباء

أما بلاغة خطباء الثورة العرابية فقد وصلت نسبيا الى حد معجز. ولا عجب فى هذا القول. فان كفايتهم اذا قيست بمستوى الامة اتضح انها من ذلك الطراز الذى حذق اخفاء تجويف الفكرة وفراغها بنقاب من الفصاحة الخلابة. وتبطينها بطلاء من نوع خاص من أنواع المبادىء السامية. وتجميلها بنسيج من النظريات الساحرة التى تأخذ المستمعين بالنواصى والاقدام ولا تترك النظارة الا أسرى القيود والاغلال الروحية. ولعمرك انها قيود أقسى من الاذلال المادى. وهذا ما اكتسبه سعد وشاهدناه فى خطبه. سحر ولكن يذهب باحراق قليل من البخور العقلى.

فهل سمع سعد من حاكى تيير أو كافور أو جمبتا متقمصا أو متجسدا البارودى أو عبد الله النديم أو عرابى لينظم نطاق الحرية الصحيحة؟ أو قرأ لواحد من كبار الرجال كتابا وهو فى ريعان شبابه حتى يشب متخلقا بخلق وطنى أو سياسى كريم؟ كلا. فما كان بين العرابيين واحد يضاهى هؤلاء. وما بدأ سعد دراسة اللغة الفرنسية إلا حينما من الله عليه فى كبره بالتعرف برشدى باشا فشجعه على تعلمها.

فمن أين تتغير غرائزه الخشنة. غرائز المعاش والجبروت كانت فى المنفعة لتؤذيه وتؤذى سمعته وسمعة بلاده؟ من أين له أن يصل إلى ذلك وقد عجز عن أن يباشر عظماء الرجال ولو فكريا فى الوقت الذى كان فيه كالعجينة على استعداد لأن يسنه الوسط العقلى كما يهوى ويشاء؟

فهل قرأ مرة أن «تيير» جعل خلال وزارة جيزو (سنة ١٨٤٠ . سنة ١٨٤٨) يلقى فى البرلمان من وقت لآخر محاضرات عن الشرف القومى والكرامة الوطنية ليهاجم بها حكم الفرد حتى برع فى هذا الفن وأمسى كبير أساتذته

فجاءت خطبته التى القاها بمناسبة ميزانية سنة ١٨٤٦ معجزة فنية لا نوردها كلها هنا وانما نجتزىء منها بقوله « تبدأ الحكومات حياتها بالفوز والغلبة . ثم يقتادها مصيرها إلى الفشل والخذلان ... إن الامة قد خولت الحكومة صك المشروعية الذى يغنيها من الحاجة إلى أى سلطان آخر فى الوجود لاجازة هذا الصك . ولقد كان الواجب يفرض عليها اذن أن تتبع ادارة قوية ماهرة حازمة بصيرة . وهذا ما فى طاقتنا أن نسميه سياسة متواضعة تستطيع مع الزمن أن تكون شريفة مجيدة .... وهل كان فى المقدور منذ عشر سنوات أن نجترىء على الافصاح بأن الملك يسود ويحكم رغم مسئولية الوزراء ؟ . لقد كنا نقول إن أى فكرة عن توازن السلطات ونفوذ الملك والوزراء وتجاريب عودة الملكية وذكرى الكارثة الكبرى يجب أن تدفعنا إلى السعى فى جعل المسئولية الوزارية جدية حتى تكون الحصانة الملكية جدية أيضاً .. . وهذه هى القاعدة التى جعلت من (كازمير بريه) وبرولى رئيسى وزارة بمعنى الكلمة

«أن الامم المستنيرة لا يجوز أن تحكم على وتيرة الدول الاسيوية . ولكى نصلح نظام الوراثة قد وضعنا نظاماً حكيماً بقدر ما هو بسيط . وهو ينحصر فى أن يكون بجانب الملك وزراء جد مسئولين . لهم من السلطان حقيقته ومظهره . . . فالواجب على الوزراء الايتواروا وألا يرفضوا القيام بمهمة الوسطاء والسماسرة ... فالوزراء الذين يعدون أنفسهم قد يمكن أن يكونوا وزراء فصحاء بلغاء . ولكنهم ليسوا وزراء المسئولية العاليه .. وعلى ذلك فالملك يسود ولا يحكم» وهل سمع سعداً أن بيزو أجاب على هذا القول فى ٢٩ مايو سنة ١٨٤٦ بقول سامى الخطر حيث قال «ليس العرش كرسيا خاليا . وانما هو كرسى له فكرة سياسية . ولا يجوز لاحد أن يحاول الجلوس عليه .

« أن شخصاً ذكياً حراً . له أفكاره وحواسه . يجلس فوق هذا الكرسى

وواجبه يفرض عليه ألا يحكم إلا بالاتفاق مع السلطات العليا التى أنشأها الدستور . . . وليس من واجب مستشار العرش أن ينصر العرش على المجلس النيابى . ولا أن ينصر المجلس النيابى على العرش . فمهمة الوزراء فى بلد حر هى الوصول بهذه السلطات المختلفة إلى فكرة مشتركة . وسلوك متبادل . ووحدة فى توافق الرأى حتى تتحقق الحكومة الدستورية » ؟

لم يسمع سعد شيئاً من ذلك ولم يقرأ مثله وقت أن كان صالحاً للتكوين جسماً ونفساً ولذلك لم تكن حماقة خطباء العصر العرابى بكافية لتغيير الغرائز الا لأسوأ .

هل كانت هناك ديموقراطية ؟

وكيف يكون الامر على خلاف ذلك ولم يكن الباب مفتوحاً أمام روح الديموقراطية التى كانت قد ذاعت فى أمريكا وانتقلت إلى أوروبا قبل الثورة العرابية بما يقرب من نصف قرن ؟

لقد كانت الديموقراطية قد أصبحت أيام شباب سعد أمراً واقعاً فى أمريكا وأوروبا حيث تساوى الامريكان أولا فى الحقوق السياسية . ثم أخذت الفكرة تمهد أمامها سبيل النبت والنماء . دون أن يعوقها عائق أو ينزل بها قضاء حتى لقد حض الكتاب فى نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر على التأمل فيها والعمل لها كى يمكن الوصول إلى النتيجة المحتومة والمستقبل الثابت . إذ كلما تساوت شروط الحياة زالت النظم العتيقة . والعادات السقيمة الموروثة . التى كانت أداة غير صالحة لان تكفل للمجموع الانسانى حياة طيبة . وقام محلها نوع من الاستبداد « الواسع الرحيم » يمد فوق رؤوس الجماعة شبكة من القواعد الصغيرة المضطربة الدقيقة المتلائمة . التى تحتم فى بادىء الامر إيجاد نظم تحميها . ووسائط تذود عنها . ولا يكون ذلك إلا فى حرية

الصحافة وفى انشاء الجماعات والاحزاب القوية. وفى اللامركزية التى تخول كل أقليم حياة سياسية خاصة . . هذا ما دعا « توكفيل » الاجيال القادمة لتحقيقه ابتداء من سنه ١٨٤٠ . فهل ذاع فى وسط عرابى شىء من ذلك حتى يكون سعد قد تطبع به وأقتلع من نفسه بذور الولع بالشقاء والاشقاء ؟ كلا . وكل تصرفات العرابيين تدل على عكس ذلك . وتهتف بأنهم إذا كانوا قد طالبوا بالمساواة فى بادىء الامر . فانهم جعلوا منها فى النهاية وسيلة دولت مصر إلى تركة لم توزع على جميع أبناء مصر وفاق الفريضه الشرعية . وفاقا للحق والعدل والانصاف والكفاءة وقانون المنافسة إذ قصروا توزيعها على أبناء عرابى وذوى إرحام عرابى كما وزعت من بعده على أبناء سعد وذوى إرحام سعد ومن بعده على أبناء كل وزار، وذوى أرحام كل وزارة وأسكن بلا ترتيب بين الطبقات .

فى مجلس النواب

وهل كنت تستطيع فى النهاية أن تأنس فى مجلس النواب نواح خصبة تتسع لبذر بذور جديدة صالحة . وتطيق العمل لذلك . وتتحمل المجهود الذى يستلزمه أداء هذا الواجب ؟ وهل التف حول عرابى بعض رجال تفرغوا لدراسة المسائل الحكومية والشئون الادارية العامة وتمحيص الميزانية أو إصلاح قانون الانتخاب وتنظيم العمل والاشغال العمومية ...... الخ . حتى نستدل من ذلك على وجود الروح الحزبية اللازمة ؟

وهل عمد نائب من نواب عرابى . أو عرابى نفسه بمساعدة الاخصائيين إلى رد الحياة إلى طبقة الشعب التى إنطفأت فيها جذوة الحياة السياسية مع أن هذه الطبقة هى التى لها قبل غيرها متى أنعدمت المساواة حق الحياة والوجود دون الطبقات الاخرى التى لم تدب فيها الحياة إلا بفضل هذه الطبقة المجاهدة ؟ هذا إلى أن مصالح الطبقة المتوسطة كانت قد تلاءمت لدرجة تفادى الناس معها

كل مبادرة وكل إقدام ولو عالم سياسي يتشكل بهذا الشكل لا يصلح لقيام أحزاب فيه بالمعنى الصحيح للكلمة. مادمنا لا نستطيع أن نلمس فيه تعارضاً وحركة وخصباً وحياة مما لا يتوافر إلا عن وجود الاحزاب في البلاد الاخرى »

ثم من يستطاع أن يرفع عقيرته أمام « أبي الامة » الفلاح القح مطالباً بالتصريح لطبقة الشعب باشتراك منتظم في إدارة الشئون العامة حتى يعرفوا أن يوجهوا الجهود التشريعية في سبيل تحسين مصيرهم الادبي والمادي. وتعميم التكاليف العامة وإنصاف المساواة القانونية والرفاهة المرتبطة بحق الملكية؟ من رفع صوته مطالباً بذلك رغماً عما في هذه المسائل من شرف وعدل تقتضيه الضرورة ويحتمه التبصر بالامنازع؟

لا . إن روحاً من هذا القبيل لم تكن في وسط عرابي حتى تسمو بخلق سعد وترفعه من مستوى المدنية إلى مستوى ديمقراطي . ولذلك فان هذا طبق واقع سنة ١٨٨٢ على سنة ١٩١٩ وما تلاها فسحق الكفاءات.

الموقف العلمي والسياسة

إن بحث الحياة العامة للشعوب سواء أكان من الناحية السياسية أم من الناحية الاقتصادية لابد أن يصطدم بصعوبات كأداء عندما نريد أن نعرف نشأة المظاهر العلمية المختلفة . وذلك راجع إلى قوة التيارات الفكرية والتيارات الحيوية الرئيسية التي تسود الشعوب إبان نهضاتها . ولهذا تقرر ارتباط الانتاج الادبي والفني بالظروف المتولدة عن الحوادث السياسية والرقي المادي ارتباطاً وثيقاً .

فالآداب . والفنون في بعض الاحيان . تختلط بالسياسة اختلاطاً تاماً . ويرجع هذا الامر إلى اشتراك الامة اشتراكاً فعلياً في الحياة العامة . حتى لقد رأى بعض الدول أن من الطبيعي أن تمثل الآداب في البرلمان. وان تمثل السياسة

في المعاهد العلمية مادام الكاتب لا يحرز السلطان إلا بالمؤلفات والمقالات. والسياسي لا يستطيع أن يسعى للمجد إلا عن طريق العلم والادب. حتى لقد رأينا النائب والشيخ والوزير يجنحون إلى الجلوس في مقعد الاديب ورأينا الشاعر والفيلسوف والروائي وعضو المجمع العلمي يميلون إلى الجلوس في مقاعد السياسي. وشاهدنا العالم والاديب يفخران بحكم أمتهما والتشريع لها. حتى لقد كان طمع « تيير » في أن ينخرط في سلك المجمع العلمي الفرنسي يعادل مطمح « فكتور هوجو » إلى أن يجلس في مقعد مجلس الشيوخ. ولما صادرت حكومة فرنسا رواية « الملك يلهو » صاح هوجو: « الآن بدأت حياتي السياسية » فماذا كانت الحال أيام الثورة العرابية؟

لقد كانت الثورة عسكرية. ولذلك لم تثمر إلا هدما وركاما ورماداً.

انها لم تكن ثورة عمرانية قومية بالمعنى الصحيح. ولا هي ثورة فكرية على الخصوص. وانما كانت ثورة مناصب واحلال إنسان مكان انسان في العيش والارتزاق فطبعت شباب ذلك العهد بهذا الطابع ووسمتهم بهذا الميسم حتى الآن. ونقل هؤلاء طبعهم بالوراثة أو العدوى إلى أبنائهم ومن خالطهم وعاشرهم. فكانت المأساة التي نشاهدها اليوم.

ومع ذلك فهل سمعنا في ذلك الحين أن الكتاب قد نادوا بالديموقراطية على انها قاعدة المجد الذي لا يبزه مجد السلاح. وأساس النجاح الذي لم يحرزه أحد قبل الآن؟ وهل رأينا المؤرخين يهزون أعواد المنابر. على نقيض القاعدة القديمة التي فرضت عليهم الوعظ في الدور والازواء في المعاهد العلمية بجانب العلماء؟ وهل شاهدنا الروائيين يتحدثون عن الغيب وينبؤون عما وراء الحجب بعد ان كان همهم ينحصر في سرد الاقاصيص؟ وهل الفينا الشعراء يسلكون سبيل الهدى بعد ان كان دأبهم الترنم والغناء والمدح والهجو؟ لا. لأن

وسطا كوسط عرابى ما كان يسمح بهذا . ذلك بأن الآداب التى كانت تسمى للهتاف والتصفيق وترغب كل الرغبة فى التوجه للجماهير أمست عملا تجاريا بحتا . له نظام نفعى محكم هو فائدة عرابى ومن حوله . ولعمرك انها حالة كان من الواجب أن تستثير عواطف المصريين وتدفعهم الى رفع الصوت عاليا ضد مخازى الآداب الجديدة والآداب المصطنعة النفعية . وواقع أيام زعامة سعد كان من هذه الناحية صورة طبق الاصل من واقع أيام عرابى

الصحافة والمسرح

ولكن الصحافة التى كان من الواجب أن تكون الوسيلة الاولى لترويج هذه السلعة لم تكن لحسن الحظ على انتشار وذيوع يمكنها من ذلك . فبقى الوباء منحصراً فى دائرة عرابى وبيئة العرابيين دون أن ينتقل بقضه وقضيضه الى الخلف .

على انه اذا فات البلد فى ذلك الحين وجود هذه الصحافة المنتشرة فكسبت بذلك اتقاء تفاقم الشر وتواليه . إلا أن هذا المكسب قد قابلته خسارة جسيمة هى العجز عن نقل الثقافة الغربية واذاعة النظم الاستقلالية ووسائط تحقيقها أولا فأولا . ونشر المبادىء الحديثة والافكار السامية كلما تمخض عنها عقل ناضج .

ولعمرك أن موقفاً كهذا ما كان يدعو الى التأثر والاندفاع فى سبيل الرقى وانما كان يدعو الى التأثر والنكوص على الاعقاب فى ممت التدهور . وإلا فليدلنا واحد على تلك الهمم والعقول والعبقريات والكفاءات الذين استشهدوا فى دور الصحف وهم متأثرون بأن فى ميدان الصحافة مصدراً لا ينضب من المجد دون الثروة . والشرف والسمعة دون المصالح والشهوات ؟

وهل وجد في المسارح رقي يسمو بالغرائز والأخلاق ؟ بل هل رأيت ما وقع في أخريات أيام لويس فيليب عند ما كان المتعهدون الدراماتيكيون الذين أقبل الشعب على منتجاتهم يتقاضون حصة من ثمن الرواية على سواء تصنعون تجاري يريدونه اذا لم يخرجوا رواياتهم ؟ والقصص ؟ هل رأيت الصحافة وقد شغلت بها ثم جرتها إلى النقد اللاذع فتولدت آداب وقتية تسير وراء شهوات الجمهور كواقع اليوم حيث يحاول الكتاب الآن أن يرضوا مطالبه وذوقه وإحساساته؟

حتى هذا الشيء البغيض لم يكن في ذلك الحين. حين الجدب الذهني المطلق والجدب العسكري الحجري . فكيف لا يتأثر سعد بهذا الوسط المحيط وقد غرق فيه من ذقنه إلى اخمصه ؟

الموقف الفكري وتحولاته

لو أن الثورة العرابية كانت ثورة فكرية لوجب أن تختلط الحياة العلمية بالحياة السياسية والتجارية أيضاً حتى تألف الحياة العلمية هذا الاختلاط وتجري الاقلام بوصف الواقع والحقيقة بعد وصف الخيال والعاطفة والحماسة . ثم تنتقل من هذه المرحلة فتتناول النفس والخلق . وتجنح بعدئذ بالمجهود الادبي إلى الدراسات التاريخية ونقد الماضي وفحص الآثار والفنون في القرون الوسطى والعصور القديمة فما كان لزاما أن يبدأ بانشاء لجنة لدرس الآثار التاريخية على نمط ما وقع في فرنسا سنة ١٨٣٧ . ثم تأسيس مدرسة على وتيرة مدرسة أثينا التي تأسست في فرنسا سنة ١٨٤٩ . وأن يتبع ذلك دراسات نقدية في في الادب واللغة ثم دراسة الآداب الاجنبية حتى تكون مرحلة المترجمين الذين لا يعلون العمل ولا يكلون من توجيه سيل جارف من الآداب الاجنبية

نحو معاهد العلم المصرية كى يؤدى الامر إلى تجديد وبعث تاريخى . تنتقل معه النظريات من موقفها السطحى إلى التعمق وسبر غور الحقيقة التى تنتجها الظروف السياسية والطبيعية والوسط على نور العلم القديم .

الفنون

وهل كان فى مصر فنانون فى عهد العرابيين ؟ كلا . مع أن مصر مهد الفن القديم الذى أخذ فنانو الغرب يستوحونه ويستلهمون وها هو ده لاكروا يقول لأحد أصدقائه . « انى أصفق لك طربا وأعجابا من جراء ولوعك بالصور القديمة . فهى ينبوع كل شىء » ذلك بأن هذا الفنان قد فهم القديم كما فهمه شكسبير واعتمد عليه فى اعادة التوازن للصحة الفنية بعد أن أصيبت بالحمى . فصور كيلوباترا فى سنة ١٨٣٩ .

إن شيئاً من ذلك لم يتم إبان الثورة العرابية مع ان الفن من مستلزمات الوطنية بل هو عنصر هام من عناصرها .

الانتاج العلمى

كان من الواجب أن يمتاز عصر الثورة العرابية بالانتاج العلمى عن باقى الانتاج الذهنى امتيازاً واضحاً . ولكن ذلك لم يحصل فقد بقى كل شىء عدما نعم لقد بقى الانتاج العلمى عدما لانعدام الانتاج الفكرى المترتب على انعدام ذيوع اللغات ذيوعا صحيحا .

ان العلم لم يعد فى متناول العاديين من الناس . وهذا ما دعا فى أغلب بلدان العالم الى وضع نظم خاصة للتدريب عليه . وتنظيم إنتاجه الدولى الامر الذى لم يكن له أثر فى عهد الثورة العرابية .

فهل لم يصبح من المستحيل أن يدرس الانسان الجهد العلمى الفرنسى بعيداً عن الجهد الانجليزى والالمانى والايطالى ؟ وهل لا يستعصى عليك التمييز بين الجهود الخاصة والجهود القومية إذا أنت ولجت باب التطبيقات العملية ؟ ألا إن الامة التى ضربت بسهم عظيم فى تنظيم العمل هى امة وحدها التى كانت تدرك النتائج المجدية . فهل من مجهود بذلته الثورة العرابية فى هذا السبيل ؟

مما لا شك فيه ان الحالة السياسية والاجتماعية لبلد ما كانت تساعد مساعدة تقل أو تجل طبقا لجهودها فى تنظيم هذا الانتاج . وتؤدى بهذا البلد حتما إلى أن ينال من نتائج هذا التنظيم بقدر مساعدته فيه . فأى مساعدة بذلها العرابيون فى سبيل الانتاج العلمى حتى ينالوا منه أى قسط ؟

ومع ذلك فان كانت البحوث والاكتشافات العلمية قد لاحت نتيجة لازمة لقوانين التطور العام ولا ارتباط لظهورها بالتطور الخاص بأمة معينة وانما ارتباطها يكون بسلسلة تطورات عالمية مستقلة تستوجب البحث عن قانون يجمع بين هذه القوات المبعثرة فى العالم . وهذا لا يكون الا بتفهم غرض المقصود تحقيقه من العلم . والمكان الذى تشغله المباحث العلمية فى عالم الفكرة . وحدود مكانها . أى بتوحيد العلم والذكاء العالمى . فأى مجهود صرفته الثورة العرابية فى سبيل البحث عن هذا القانون ؟

لقد قال رينان ضمن كتابه الخطى الذى وضعه فى سنة ١٨٤٨ وأذيع فى سنة ١٨٩٠ « ان العلم يحوى مستقبل الانسانية . فهو وحده الذى يقول لها الكلمة الخاصة بمصيرها . وسيأتى اليوم الذى لا يخضع فيه العقل المستنير بالاختبارات للمصادفات ويسير فيه تحت قيادة العلم فى الاتجاه الواضح من الغرض المقصود وستكون آخر كلمة للعلم هى تنظيم الانسانية علميا »

فهذه الافكار وشبيهاتها قد دلت على أن مهمة العلم لا تخرج عن أن تكون

العمل على الغاء سيادة الرجل الطبيعية واخضاعها ووضع قاعدة يجرى على منوالها فى الحياة العامة والخاصة . أى وضع قاعدة سياسية وخلقية . وهذا معنى قول رينان . « فبأسم الله أسألكم أن تسلموا معى بان العلم وحده يستطيع أن يمكن الانسان من معرفة الحقائق الحية التى لا يتسنى لنا بدونها أن نحتمل الحياة . ولا أن يكون للجماعة كيان » فبهذه الصفة . وتحت هذا الستار مهد العلم للعمل على التأثير و الجماعات السياسية كما مهدت الآداب . فهل كان للثورة العرابية نصيب من ذلك حتى يكتسب سعد شيئاً منه باختلاطه مع العرابيين ؟ كلا . فما كان حظ العرابيين من العلم يمكن من العمل على الغاء سيادة الرجل الطبيعية واخضاعها ووضع قاعدة يجرى على مقتضاها فى الحياة العامة والخاصة . أى وضع قاعدة سياسية خلقية يتسنى له بموجبها أن يعرف الحقائق التى لا يمكن بدونها احتمال الحياة أو يكون للجماعة كيان ولا سيما بما قصاه الا كناه . وهذا الجهل هو مادفع سعد الى أن يجهر فى مجلس النواب فى قحة تعبير ودمامة تفكير بأنه لا يعرف معنى للجامعة ووزارة المعارف قائمة .

ماهو الرأى العام

ليس الرأى العام مجموعة من الصيحات والصخب والضوضاء والجلبة والنعيق والنهيق والآلام والحسرة والبكاء والنحيب والدوران واللف . أو الركود حول النفس والغاية والشهوة . وانما هو مجموعة مؤثرات كامنة فى حركة فكرية علمية أدبية فنية اقتصادية مالية صناعية زراعية تدوى صيحاتها فوق المنابر وعلى جدران المنازل . وفى داخلها . وداخل المدارس والجامعات . وفى أنهر الصحف والمتاجر والمصانع وفى بطن الارض وجوف السماء وفى أغوار الماء وعلى سطحه .

ليلا ونهاراً ويمتد شعاعها الى ماوراء البحار ينافس ويزاحم في مختلف الاسواق . ولهذه المؤثرات قوة مغناطيسية تجذب القلوب الى الامام ودائماً الى الامام . ولها نور يهدي هذه القلوب ويطهرها ويشفيها من الامراض فلا تعتورها حمى ولا يقنابها جمود ولا ألم مهما كان الخطر ومهما اشتدت الصدمات والنوازل . فهل وجدت هذه المؤثرات في أيام شباب سعد . أيام الثورة العرابية ؟ إن ماقدمناه يدل في وضوح على انعدام الرأى العام الصحيح . ويثبت أن الثورة العرابية كانت في نهايتها ذبحة صدرية أزاغت بصر القادة وتركتهم في أماكنهم جامدين حيارى وعن شئون الوطن لاهين . لا لاختيارهم . ولا حرية لارادتهم . ولا تفهم لحقيقة موقفهم . فمن أين كان لسعد ما يطبعه في شبابه بطابع الأحرار والمفكرين والمجاهدين الراسخين في علم القيادة والسياسة والفراسة . وما كان وسط الازهر العلمي الذي تجرد من التبحر في الرياضة والجغرافية والتاريخ والفلسفة والاجتماع الخ يؤهل واحداً من طلبته في سنة ١٨٨٠ ليكون زعيماً في سنة ١٩١٩ ومابعدها . ولا سيما بعد أن احتضنه الانجليز نيفاً وثلاثين عاماً طبعوه فيها بطابع الذلة والاستكانة واحتقار الذات ؟

هل كان سعد رجلا سياسيا ؟

يحق لنا بعد الذي قدمنا أن نبحث فيما اذا كان تكوين سعد وفاق غرائز الشيخ ابراهيم زغلول والوسط الازهري والبيئة العرابية وابتعاده في بادىء نشأته عن الوسط الراقي رقياً عصرياً مما يساعده على أن يكون رجلا سياسياً صالحاً لأن يتزعم على مصر في سنة ١٩١٩ ؟

ان بحث هــذا الموضوع يتطلب كلمة أولية عن رجال الثورات الفشلة . وكلمة تمثيلية عن تغلب الطبيعة على الوسط ساعة الخنق أو انطلاق اليد بعد حجر وأسر واعتقال روح .



رجال الثورات الفاشلة

كان محمد من رجال الثورة العرابية . والثورة العرابية اخفقت . وكان من الواجب أن تخفق لان رجالها لم يكونوا أهلا للقيام بها فهل من يخفق في ثورة يصلح لان يقود ثورة أخرى ولا سيما إذا صادق عدو البلاد وانخرط في سلك خدمه خلال جيل ؟

لقد أثبت التاريخ أن فشل ثورة نهائياً يؤدي حتما بمن اشتركوا فيها إلى عجزهم عن القيام باخرى أو قيادتها على أحسن وجه. وهذا قانون نفسي لا منازعة فيه ولا شك بعد أن أصبح علم النفس هاديا في الحكم على الرجال وصلاحيتهم للاعمال التي تتناسب مع قوة الارادة وقوة الحواس وقوة العقل.

ان فقدان الصلاحية للقيادة لا يترتب على فشل الثورة أو العمل المجهد فحسب . بل هناك طول الانتظار والعادة والتطبع كلها مؤثرات في النفس تدعو إلى اليأس والقنوط وخور العزم . وإذا شئت أن تتأكد من هذه الحقيقة فاتل مثلا صحيفة نابليون قبل نفيه إلى جزيرة البا وبعدها أو قلب صحفاً أخرى من صحف الحزب الجمهوري الفرنسي بعد ثورة سنة ١٨٣٠ . وهي ثورة أهلية لم يعقبها احتلال قوات أجنبية ولا ارتماء زعمائها في أحضان عدوهم .

لقد خلا البرلمان الفرنسي من الجمهوريين بعد أن صدر قانون يحول دون ترشيحهم. ولكن إذا كان هذا المجلس قد تجرد من ممثلي هذا اللون السياسي . فانه قد اشتمل على متطرفين ديموقراطيين . فضلا عن أن دعاية الحزب الجمهوري كانت متتابعة بلسان « القاموس السياسي » والمجلة الجمهورية « لدوبون . ومارامست » ومجلة رقي لويس بلان . وصحيفة الناسيونال .

كان الحزب الجمهوري قد تضعضع عقب وفاة جارنييه باجيس الكبير سنة

١٨٤١ . وكافينياك سنة ١٨٤٥ وانسحاب نزيلاوراسباى . حتى لقد تسرب اليأس إلى قلوب أشد الجمهوريين حماسا أمام حكومة طال أمد حكمها وأدى الأمر بالجمهورى « ارانجو » فى سنة ١٨٤٤ إلى أن يقول لنا خيبه . « أصرح بأن الحكومة الدستورية الملكية الوراثية هى الحكومة الوحيدة التى أرى أن فى مقدورها أن تغرس فى فرنسا جذورها وتؤتى ثمارها . » واضطر هيبوليت كارنو فى سنة ١٨٤٦ إلى أن يصرح ابان الحملة الانتخابية بانه مخلص للنظام الذى أنشأه الدستور المنحة . واتبع بذلك رأى والده الذى كان جمهوريا ولم يتأخر عن قبول النظام الامبراطورى احتراما لارادة الامة وفى سبيل حب بلاده . وانتهى به الامر فى سنة ١٨٤٧ إلى أن يصدر منشورا تحت عنوان « المتطرفون والدستور المنحة » أعلن فيه « أن الدستور المنحة لا يعوق الرقى الديموقراطى بل أنه لا يعوق أى تقدم سواء أكان فى سبيل الاصلاح الانتخابى (من ناحية تقدير الاهلية وانقاص الضريبة والانتخاب المباشر من درجة أو درجتين) أم عن طريق مختلف الحريات الفردية الخاصة بالصحافة أو التعليم . أم فى سبيل المسئولية الوزارية واختصاص الخلقين . . . انى من هؤلاء الذين كانوا يرجون فى سنة ١٨٣٠ قيام الجمهورية ولكنى لم أكن من هؤلاء الذين لا يرضون إلا بالثورة من أجل الحصول على كلمة . فالمتطرفون كانوا إذن يريدون أن تكون الحرية تامة لجميع الآراء . وأن تكون الملكية هى الحكم عند الضرورة للفصل بين السلطات ومنح الحق الغالب من الاحزاب واسناد السلطة التنفيذية له » فالحزب المتطرف كان يرى فى الدستور المنحة تحقيق كل ما يريد وما عليه إلا أن يساعد كل حزب يدعو إلى الاصلاح الانتخابى وبنيان الخلق السياسى .

وقد اتخذ الحزب المتطرف صحيفة « لاريفورم » لسان حال له . وادارها

« لدرو رولان » وهو محام فاز فوزا ساحقا فى مانس أثناء انتخابات سنة ١٨٤١ ولقد حوكم أمام محكمة الجنايات لنشره خطابه الانتخابى فى صحيفة « كوريه ده لاسارت » حيث قال لنا خبيه : « إن الشعب قطيع من الاغنام يقوده بعض الممتازين مثلى ومثلكم . ويطلقون عليهم اسم الناخبين . . . وإذا نهض هذا الشعب ليطالب بحقوقه التى أجزاها فى غيابات السجون . وإذا هو جمع صفوفة حتى لا يسحقه الشقاء وتقضى عليه التعاسة أو دافع عن أجره الذى لا يعينه على سد حاجته الحيوية زج به فى ظلام الزنازين . وإذا هو كتب على اعلامه « قطعة من الخبز أو الموت » كما حصل ذلك فى مدينة ليون أنهالت عليه المقذوفات النارية . وانتهكت الجنود حرمات ما تبعثر من هشيم رفاته . ولكن الشعب هو السيد . ولقد أمده حملة شعار الحرية بهذا الاسم أيضاً . حزله ما أذاع من دين شرعه على أسنة رماح المساواة والاخاء ان الشعب مسيح اليوم فماذا نصنع ابعثة ؟ لامناص لنا من الاصلاح . فهو الشرط الاساسى لكل رقى سلمى . فليكن اذن كل وطنى ناخباً . وليس فى المقدور أن يقوم تجدد إلا إذا تمشى نحو اصلاحات صادقة صحيحة . فالحزب الديموقراطى قد امتاز على الخصوص بهذه الناحية السامية القائمة على حب الشعب امتيازاً عميقاً يفوق امتياز الاحزاب التى تمخضتها ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ . فالشعب ليس له وجود فى النظريات المدبثة بالانانية . — إن الشعب فى نظر تيير تمشى يدوسه ويرشه تحت أقدامه كى يصل إلى غايته وكذلك حزب « بارو » إنه لا يعنى أيضاً بالشعب . أما حزب « المشروعية » فانه يتكلم عن سيادة الشعب ولكنه الثعلب يرتدى جلد الاسد » فحكم عليه بأربعة أشهر وثلاثة الآف فرنك غرامه ثم صدر حكم محكمة النقض والابرام ببراءته .

ولقد أعلنت هذه الصحيفة أنها اللسان الناطق بتوحيد جميع العناصر

الديموقراطيه ولا مبدأ لها إلا تطبيق سيادة الشعب، دراسة الزراعة والصناعة والتجارة والعمل على ارضاء الطبقات العاملة . وتعليم الاهالي واحماتهم وتبيان حقوقهم . وتذكير الشعب بأن مصالحه الحقيقية تفرض عليه توحيد الصفوف والتآخي .

أما الصيغة التي أراد «لدرورولان» أن يجمع حولها صفوف الديموقراطيين أمثال (ارمن اراجو) و(لويس بلان) و (جدفروا كافنياك) و(كريميون) و « فلوكون » وبيرلو . ألخ — حتى ينضم اليهم الشعب فهي « مبدأ الاصلاح الانتخابي على قاعدة الاقتراع العام » وهو مبدأ قديم سبق أن قال به كافنياك ولويس بلان في هذه الصيغة : « إن الاصلاح السياسي شرط أساسي للاصلاح الاجتماعي » وهذا هو الميدان الذي يتلاقى فيه الجمهوريون والاشتراكيون

لقد توارت مهمة الجمهوريين ردحا من الزمن . إلى أن جاء اليوم الذي تجمعت فيه جهود الخارجين على حزب المحافظين مع المعارضين للاسرة المالكة . من أجل النضال والعمل . وحشد القوات الحانقه وتعوينها بعناصر جديدة من الشباب الطاهر . وفي ذلك اليوم أمد الحزب الجمهوري (هذا الحلف) القائم على سحق المبطلين والمستضعفين والهازئين بحقوق الشعب برجال عديدين ذوي أقدام وحزم وعزم وكفاية تؤهلهم عند الضرورة للقيام بالعمل الحاسم .

وفي الواقع كنت تلمس في الوجود تقليداً . بل تلمس ايمانا أو دينا جمهوريا هو ذلك الذي اعتنقه شباب يوليو سنة ١٨٣٠ . وهو دين استمدقوه رهيبة من حماس نظرية العواطف الروائية المتأججة في صدور الشعراء والفنانين كما استمد هذه القوة من تفجر الشعور بتقديس الشهداء الذين راحوا ضحية العصيان الاخير واحكام المحاكم أو قضوا باقي حياتهم في السجون تنفيذاً للنظام البشع

الذى أتبع فى إطفاء العصيان الذى وقع فى سنة ١٨٣٩ . فجميع هؤلاء الشبان والرجال والشيوخ كانوا وهم فى اجتماعاتهم السرية العجيبة التى عقدوها فى مغاور جبل سان ميشيل وغيرها يستوحون إله الرق والتقدم ويضرعون اليه أن يسدد خطاهم فى سبيل الخلاص وان يؤيدهم بروح من عنده حتى يحققوا الاخاء والمساواة.

تحالف الاحزاب

كانت الحكومة الفرنسية قد بدأت تعطف على حرية التعليم . ولكنها فشلت فى هذا النوع من التحرير الفكرى . ولذلك فان أعداء الرجعة . الماثلة فى ملك خمل فسدت حاشيته وتهدمت أخلاقهم. قد رأوا أن خير وسيلة للاصلاح انما فى تعديل قانون الانتخاب والدستور تعديلا يقضى قضاء مبرما على حكومة الفرد والرشوة المتفشيه فى فروع الحياة الفرنسية .

لم تكن فكرة التوسع فى حق الانتخاب العام حديثة . فمنذ العمل بقانون ١٩ أبريل سنة ١٩٣١ قام الاحرار بمقاومته رغبة فى سحق قيوده . فرجال حزب الامرة المالكة القديمة قد اقترحوا تخويل هذا الحق لكل دافع للضرائب المصرية قيد اسمه فى دفتر الانتخاب منذ عام وبلغ من العمر ٢٥ سنه. وقد أيدت صحيفة « غازيتة فرنسا » وصحيفة « لافبير » هذا الرأى . ولكن الصحيفة الاخيرة لم تكن منتشرة . أما جرأة الصحيفة الاولى فكانت وسيلة للمزايدة لم تلمع عليها شارة من شارات الاخلاص .

وقد كان الانتخاب العام المباشر المصرى جزء من برنامج « جماعة حقوق الانسان » وانما كان ذلك لغاية نبيلة هى استئصال الفساد . وابعاد النائب عن أن يكون كما قال « تيلييه » : « مسمار دائرته الانتخابية . إذا حضر جلسات

المجلس قائما ليتثاءب . وإذا انتهت الجلسة هيأ نفسه لاداء مهمته . وهرول من وزارة إلى وزارة لانجاز مطالب ناخبيه »

ولما جاء عصيان سنة ١٨٣٩ . وتكرر التآمر على حياة الملك خشى أحرار الطبقة المتوسطة أن ينحاز الشعب إلى الفكرة الشيوعية . فتصدى بعضهم لاقتراح تعديل انتخابي يغذى الشعب بأمل التدرج فى الاشتراك فى الحكم تفاديا من الشيوعية . فلم يلح هذا الاصلاح هنا انه وسيلة من وسائل الهياج أو الخيال الواجبة الاهمال . وأنما اعتبر واسطة تؤدى إلى توثيق عرى الوفاق بين الشعب والطبقة العالية . ولقد جاش إذ ذاك فى قلوب القادة أمل غامض هو أن يكون المران على الديموقراطية وسيلة إلى ابعاد الروح القومية عن تأليف أحزاب الطبقات . وباعثا على اجتناب نضالها . وممهداً للامة بأسرها سبيل الرقى السياسى والرقى الاجتماعى .

فالهياج الذى نظمه الحرس الوطنى إبان عصيان (سنة ١٨٣٩ — سنة ١٨٤٠) فى سبيل الاصلاح الانتخابى . وفوز لدرو رولان فى سنة ١٨٤١ كانا مظهراً من مظاهر المقاومة لتلك الفكرة القذرة التى حلت فى مجلس النواب وأدت إلى ازدواج حكم الفرد بالرشوة فوق المقاعد النيابية المقدسة .

كان جيزو والملك لويس فيليب هادئين أمام حملات المعارضة القاسية . فما مهما أنها حملات عقيمة جاءت فى وقت غير ملائم . ولقد تصورا أن احترام الدستور لا يكون إلا فى انحياز أغلبية المجلس لهما . ومما لاشك فيه أن لويس فيليب بعد حكم استمر عشر سنوات قضاها فى الصبر والخداع قد وصل إلى أن يحكم بنفسه وبواسطة وزيره جيزو . حكما يرى معه أنه لم يرتكب ظلما يستحق عليه التعنيف . ولكن هذا الملك الذى أفلت من أيدى عشرة من القتلة . وفل غارب العصيانات العديدة . وعرف كيف يستخدم ويذل هؤلاء

الذين ظفروا باحلاله محل شارل العاشر عقب ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ . قد خال نفسه معصوما من الخطأ السياسي .

لم يقلق بال الملك أمام هجمات الصحافة الفرنسية وسبها إياه . بل كان مطمئنا كل الاطمئنان . وذلك لانه ما كان يقرأ غير صحيفة التيمس الانجليزية وكان واثقا من أعجاب أوروبا به . وبقدران السلام العام الاوروبي انما جاء غرس يده . لذلك أبى أن يفكر في تغيير طريقة حكمه وفي تآلف وزارته . حتى لقد صرح لمونتاليفيه بعد أن صارحه بخطر الموقف الذي سببه وزراؤه وسياسة حكمه قائلا : « إنك تريد حرماني من جيزو . ولكن هذا الحرمان ليس إلا انتزاع لساني من حلقي »

قاوم الملك كل نصيحة . وأبى الاشتراك في أي عمل يقلق راحته . حتى ما كان منه متعلقا بداخلية أسرته . ولذلك ساد البلاط خلال سنة ١٨٤٦ ذلك الخطر الذي شعر الناس بأنه يحيق بالملك من جراء السخط على وزيره والحنق على نظام حكومي مشئوم . ولكن رجال البلاط عجزوا عن أن يقيسوا مسافة الخلف بين الشعب والملك مع أنها كانت تتضاعف طولا وعمقا من يوم لآخر وقصروا عن أن يدركوا أن فرنسا الادبية والسياسية أصبحت بمعزل عن حياة حكومتها غير مكترثة على الاطلاق بعرشها ولا آبهة بمستقبله لما في أعمال الحكومة والنواب من افتئات على أقدس حقوقها

ومن هنا يتضح الاثر النفسي الذي يحدثه الاشتراك في ثورة يقضى عليها نهائيا بالفشل كما يتضح أثر طول الانتظار في الجهاد . فما بال أثر الاشتراك في ثورة خاسرة يعقبها تعاون مع العدو ومساهمة في توطيد أقدامه . وعمل على تنفيذ برنامج هذا العدو دهراً طويلا كما كان شأن سعد ؟

تغلب الطبيعة على الوسط

على أننا نستطيع أن نفرض جدلا أن وسط نمرابين كان من أرق أوساط خلق الله . وأن سمداً لم يتم في أحضان الانجليز طوال جيل من الزمن تكون فيه الشكل خاص . ونتساءل ماذا كانت تكون الآثار المترتبة على جبلته وغريزته الجوهرية التي انتقلت اليه من والده العمدة ؟

لقد أثبتنا عطفاً على ما تقدم أن هذه الغريزة لابد وأن تنكشف في يوم ما إذا ما أحرج الانسان أو استثير أو أطلقت يده بعد حجر وأسر . وهنا نرى أن التمثيل أفعل في النفس وأفضل في إقناعها بالحقيقة

تيبير

قال لنا المسيو هنري هوسيه عضو الاكاديمية الفرنسية في كتابه « أثينا وروما وباريس » (ص ٢٠٠ وماتلاها طبعة سنة ١٨٧٩) : « إذا كان الخلف يصدر أحكاما نهائية . ولقد برأت عدالة الاجيال الامبراطور أغسطس الذي سما بالدم وقضت على تيبير الذي سقط بالدم . ولا قبل للاعاجيب المتولدة عن أشد العبقريات وأقواها حجة على أن تنقض حكمها . وليس المسيو « بوليه » بقادر على ذلك وهو الذي أراد بدراسته تيبير أن يرد الاعتبار العام إلى خليفة أغسطس ورائد الطريقة التي اتبعها مونتسكيو ، وهو يقارن بين تيبير ولويس الحادي عشر حتى ختم المقالة لمصلحة رجل روما ولكن « بوليه » قد أيد رغم ذلك نظرية جذابة . هي « أن القضاء والقدر الذي أثقل كاهل أبطال المأساة الاغريقية القديمة قد أحبط منكب تيبير إحباطا أشد . وهذا القضاء والقدر هو التركة التي خلفها أغسطس » وبعد أن شرح المسيو « بوليه » أخطار السلطة المطلقة التي تحيق بمن ينشئونها طفق يدلل على صحة رأيه في برهان فاقت فصاحته قوة

اقناعه . فقد ذكر تيبير طفلا وشيخاً . وكهلا ورجلا . وصوره لنا [illegible] وآ
وقائداً للجيوش وذليلا مقاداً للسلطان أغسطس وفيصلا وأمبراطوراً .
وقاسياً في أحكامه بعد تتويجه وظالماً مجنوناً ووحشاً ضارياً قبل موته .
ولقد تتبعه في أسبانيا وجرمانيا وفي رودس وبرنونيا وفي الفوروم وفي قصر
البالاتان وفي حدائق ميسين ومغاور جزيرة كابريه . وفي كل مكان . وفي كل زمان
وفي كل مناسبة ظهر فيها تيبير فريسة سلطانه .

«ومن الواجب أن نناهض نظريات المسيو بوليه بالأسلحة التي يقدمها لنا
كتابه . إنه يقول : « لقياس الأثر المترتب على السلطة المطلقة في رجل مفروض
فيه أن الطبيعة أنشأته أميراً موهوباً ذا ذكاء واسع . حازما متقنا . منحدراً
من جنس عظيم سما تكوينه العقلي والبدني . وتخلق بخلق بارد . وامتلك
صحة لا يتطرق إليها الضعف وكان جندياً باسلا وقائداً ماهراً وإدارياً حكيماً
تحيط به حاشية طيبة . وتؤيده نصائح أمهر الامهات وأمكرهن . وتشد الحظوظ
أزره في أغلب الأحايين . يندفع بلا جهد نحو العظمة . ونبتت حياته الاولى
بجانب السلطة المطلقة . ثم زاولها عمليا . ثم عدل عنها ثم استولى عليها في سن
النضوج وانتهى به الامر وهو في سن السادسة والخمسين إلى أن ساد العالم .
فإذا كان هذا الرجل قد فسد شيئاً فشيئاً . وخار رويداً رويداً . ثم تحول حتى
أصبح في يوم من الايام ملعونا من الانسانية . وموضع كراهتها . فإن المثل
يكون حاسما والبرهان التفصيلي يكون كاملا » نعم إن البرهان كامل .
ولكن المثل ليس حاسما . إذ يمكننا في سهولة أن نقابل مثل تيبير بمثل يناقضه
تماما . وهو مثل سلفه أغسطس . فإذا كان حقا أن تيبير قد فسد تدريجيا
وتحول حتى أصبح ملعونا من الانسانية وموضع كراهيتها باستخدامه السلطان
المطلق فكيف يكون « اكتافيوس » بمزاولة هذا السلطان المطلق نفسه قد

صالح تدريجيا وتحول حتى أصبح أبا الوطن ونموذج الملوك ؟ فهل السلطة المطلقة كذلك الينبوع الساحر الذى تحدثت عنه الاقاصيص الفارسية ومن شأنه أن يهب الطيبة الابدية أو المرض العضال تبعاً للاستحمام فيه عند شروق الشمس أو غروبها ؟

ومع ذلك فهل تيبير كان قبل تتويجه الرجل الكامل الذى زعمه هذا البرهان ؟ ان التاريخ ينكر ذلك ، اما ان تيبير كان على وسعه من الذكاء . وعلى تكوين حسن عقلا وجسما . وشجاعا وقائداً ماهراً فهذا ما نسلم به . ولكن هذه الصفات لا تستلزم أبداً أن تقترن بقيمة أدبية ولا بكفاءة أساسية لحكم العالم . لقد انحدر تيبير من جنس عظيم . ولكن أسرة آل كارد قد اشتملت على الابن الرحيم ، والشيطان الرجيم . فمنهم من أثار حماسة روما بعد أن دحرهم بيروس . ومن طرد جنود قرطاجنة من صقليه . كما كان منهم الوحش الذى قطع الصلة بين مجلس الشيوخ والشعب . ومن حاول استعباد ايطاليا . ومن فقد أسطوله . ومن نفى شيشيرون وأجرى الدماء فى شوارع روما . فتيبير الذى كان إلهه الشيطان الرجيم كان فى وسعه أن يقلد بعض أسلافه . فهل كان اداريا ماهراً ؟ من السهل أن نقيم الدليل على العكس إذا نحن أثبتنا أن يده لم تتدخل فى جميع الاصلاحات والتجديدات التى تمت أيام حكمه . ولا فى التوسع فى تطبيق قانون الاعتداء على مسند الملك وجعله شاملا الاحوال السياسية بعد ان كان قاصراً على الشؤون الدينية الخ . الخ . وانما هى اقتراحات ليفيا وسيجان التى أدت الى كل ذلك . بل هى اقتراحات ليفيا على الخصوص تلك المرأة التى كانت بمثابة كاترين ده ميديسيس الرومانية . بل انها بزت الاورانتية . وكان لها اكبر الاثر فى نفس أغسطس وتيبير . واستمر نفوذها كذلك فى الحكم الامبراطورى بعد أن أسست الامبراطورية . ان ليفيا كانت الشيطان المؤسس

للمبدأ القيصرى . والثورة الساحقة الماحقة للنظم والحريات الجمهورية .

فاذا كان تيبيريوس أظهر بعض الخلال الحميدة فى أول فترة من حياته فلان الخوف من أغسطس وليفيا قد كبح جماحه . ولكنه عندما شعر بالحرية أطلق العنان لرذائله ونقائصه التى اعتقلت طويلا . والحرية لم تأت اليه إلا فى آخر أيام حياته .

فعندما خلف أغسطس لم يتغير الحال إذ التغيير انحصر استبدال سيد بسيد آخر . فقد حل تحكم ليفيا المتهتكة محل سيادة أغسطس . وإذن فتيبيريوس لم يكن حراً . ولم يحكم بنفسه إلا بعد موت أمه . وبعد القصاص من عشيقها الغادر . ولكن أخر أيام حكمه . وهى الايام التى امتازت باهراق الدماء اهراقا فظيعا وتلطخت باقبح عار . كانت أيام حكمه الخاص .

فالجرائم الجنونية . واوحال الفحش فى جزيرة كبريه . هى من عمله الخاص ولا دخل لاى كان فيها .

فهذا الرجل الحسود الحقود الجبان المنافق المتردد . الوضيع فى نزقه المتجرد من القوة بقدر تجرده من الفضائل الادبية . هذا الكلب الذى خضع لاغسطس فى ذلة . وتحمل فى أناة وصبر وذلة فحش زوجه . وقسوة الامبراطور والنفى الى رودس ظلما . ورصد يمينه . يمين القائد على خدمة امبراطور لوث شرفه بالاختلاط بجوليا . وكان فى الوقت نفسه يقسو عليه . ويبغضه . هذا الظالم الرعديد الوحش الذى كان يكبح جماح غلظته ووحشيته . وشهواته الغريزية وكثيراً ما كان يشعر بنير ليفيا وسيجان قد أسرع بعد موتهما الى الانقطاع فى هاوية من أوحال الجرائم والفحش تاركاً الحكومة . نابذاً مجلس الشيوخ الخالى من نصف أعضائه . لاهيا عن تعيين قواد للجيوش المتطوعة . وحكام للاقاليم . ساهيا

عن الدفاع عن أرمنيا ضد البارث . وعن ميديا ضد الفرس ... الحول ضد الجرمان هذا الوحش المتأنق فى بربريته كان يرغم الجلادين على استلاب عفاف العذارى قبل اعدامهم . واذا انتحر سجين حرم لا باسى وسائل التعذيب الامبراطورية المبتكرة صاح : « لقد فرمنى كاليجولا » فهل هذا الرجل يبرر قول المسيو « بوليه » : « أن تيبير لم يكن وحشا . ان تيبير كان رجلا مثلنا . وموهوبا أكثرمنا » ؟

ان عظماء المجرمين يستطيعون أن يبرئوا أنفسهم فى سهولة كبيرة اذا هم استخدموا كلمة أثقال الماضى التى تذهب جفاء وفى لمح البصر أمام كلمة عقل . واذا نحن تلونا خاتمة كتاب تيبير . لوجب علينا توا أن نفكر فى ابنى فسبازيان : تيتوس . ودوميتيسيان . اللذين عاشا زمانا واحداً ورباهما أستاذ واحد وكان كلاهما ولى عهد مباشر أعد ليحكم شعبا واحدا . ومع ذلك فقد استحق كل منهما أن يلقب بلقب مختلف عن لقب أخيه . فتيتوس قد لقب « بهجة النوع الانسانى » وأما دوميتوس فلقب « عار الانسانية وموضع مقتها »

فتركة أغسطس ليست هى التى جعلت من تيبير ظالما ممقوتا . وانما طبيعته الوضيعة الحقود القاسية . حتى لقد قال فيه تاسيت قبل أن يعرف اثقال الماضى « وفى النهاية قد تردى فى الجريمة والعار معا فى وقت واحد عندما زاول طبيعته فى حرية وأبعدت عنه وسائل الجريمة والعار »

فالغريزة إذا ما أطلق عنانها أو استثيرت وأرتفع الرماد الزمنى من فوقها . تجلت بمظهرها الحقيقى . واتضح جوهر الجنس فى عملها . أما مفعول الوسط . أما التربية فهى كما قدمنا « وسيلة صناعية فى مبدئها . تخلق فينا طبيعة ثانية تلوح فى نظرنا أنها امتصت الجوهر . وجبلته . ولكنها لا تصل إلى هذه القوة فى أغلب الاحيان . فكم من رجال تحلوا بهذه التربية ولكنها لم تجتث

غير تام . فهي إذن ليست إلا دهانا لماعا ينهار فتبين عند أول صدمة . لتظهر الطبيعة الأصلية بنهمها ووحشيتها . أو قناعتها وفضائلها ولقد يدهش الإنسان أحيانا من أن يرى شعوبا بلغت أقصى حد في المدنية والوداعة والإنسانية والخير إبان سيادة السلام ثم هي لا تلبث أن تنقلب عقب إعلان الحرب أو عند اصطدام مطامعها بحقوق الضعفاء وحوشا كاشرة . تهبط إلى أحط دركات القسوة والوحشية . ولكنه إذا فكر مليا وعلم أن الحرب ما هي إلا عود لمبدأ الخليقة . وسيادة الهمجية والوحشية . وما وظيفة هذه الحالة إلا أن تبعث تلك الطبيعة البشرية المتلائمة معها . والسابقة على أي ثقافة وتخرجها من مكمنها في حماستها . وبطولتها . وعبادتها القوة والمطامع الأشعبية ولذلك قد حق قول كارليل : « ليست المدنية إلا غلافا يستر طبيعة الإنسان وهي تحترق بنار جهنمية »

وهكذا كانت حال سعد . فهو يهدأ ويستسلم إذا ما عجز . ويثور إذا ما اشتد وقوي . أما إذا أغضب وهو في قوة فإنه كان الليث يعتدي ولكن على العزل والضعفاء . واستسلامه واضح في مفاوضته . وثورته ظاهرة في معاملته معارضيه فغريزته هي التي تتحرك رغم الطبائع المكتسبة . ولا تتحرك إلا إذا أمن وتحرر من أي قيد . فشعوره بالحرية أطلق العنان لرذائله ونقائصه التي اعتقلت طويلا والحرية لم تأت إليه إلا في آخر أيامه التي هوى فيها بالأمة إلى درك من الاستهانة بالحقوق وامتهان الكرامة ولا دخل لأثقال ماضي الأمة في كل ذلك .

نيرون

إنك إن قلبت أي صحيفة من تاريخ نيرون تدفق منها الدم حتى خنقك . فلا تكاد تبصر إلا أحمر . ولا تسمع إلا استغاثة . ولا تشم إلا نتنا ولا تحس إلا جمودا وتحجرا . ولا تذكر إلا كلمة لامنيه : « إن التاريخ لأطول محضر دون فيه تعذيب الإنسانية »

ولتبرير أعمال هذا الخليع والممثل المضحك الوضيع الذى حمل فوق رأسه تاج روما قد التجأ المؤرخون إلى السفسطة التى أسندوها إلى أفلاطون حيث قالوا « ان الجرائم التى امتازت بالاستبسال والوحشيه لا يرتكبها رجال من ذوى العقول بل تترتب على نفوس قوية كريمة أفسدتها التربية . » فهم اذن يستندون على الناحية الطبيعية لابن « اجريبين » . وهى طبيعة أفسدتها تربية معقوتة ثم يشيرون إلى ما تحدثه السلطة المطلقة من عمى وذهول عن الصواب - ويذكرون سبب وجود الدولة ذلك المعبود الجامد الذى يريد التضحية عن طريق قيام الجبابرة فى كل ناحية . ثم ينتهى بهم الأمر الى أن يلقوا تبعة جرائم نيرون على مستشاريه . مثلهم فى ذلك مثل خصوم أغسطس وحساده الذين يستندون الى رد أعماله إلى ابتكارات وزرائه . ولقد اتخذ هؤلاء المؤرخون أيضاً الى كلمة قالها الشاب نيرون قبل وفاته لتأييد حكم القضاء والقدر الذى لحقه كاملة . وهذه الكلمة هى « لأنك أنا واجريبين إلا وحشاً »

لقد دلل نيرون بأعماله على صحة نبوءة والده . ولكن هذا الوالد يكون صدقا فى التنبؤ بها . لأنه إذا كانت أجريبين زوجه بنت جرمانيكوس هى التى قال عنها والده كلته من مساوئ . فليس هناك من سبب يدعو الى أن يكون نيرون هو ابن اجريبين دون غيرها . ومع ذلك فاذا كانت الفضيلة فضيلة جرمانيكوس قد ولدت الرذيلة . رذيلة أجريبين . فلماذا لا تلد الرذيلة فضيلة ؟

أما فيما يتعلق بتربية نيرون فقد وجب أن نتحرى الحقيقة حتى نعلم ما اذا كانت قد ساءت بالدرجة التى أشير اليها ولذ للمؤرخين وصفها أم لا ؟

ان نيرون الذى انتزع منه كاليجولا ميراث والده قد بقى الى سن العاشرة فى حضانة عمته « ليبيديا » دون أن يعهد بأمره الى مرب أو أستاذ غير حلاق ورقاص ولقد عوده هذان « البيداجوجيان » حياة المواخير ومطاردات منازلة الوحوش فى المسارح حتى انطبعت تأثرات الطفولة فى أعماقه انطباعا قاسيا . إذ احتفظ الامبراطور نيرون بأذواق ابن اجريبين الصغير .

فالمائدة ومسرح الوحوش بقيا أداة لهوه ومسرته. واستمر ظفره الدنىء أبعد مطمع. وأقصى مطمح. ولكن هذه التربية التى تعلقت بالرياح والمصادفات قد انتهت بزواج اجربيين من كلود. وفى سن الحادية عشرة كان نيرون استاذ جديد هو الفيلسوف سينيك.

فهل كان هناك أكفأ من سينيك لتهذيب قيصر الغد وتكوينه واعداده لممارسة السياسة؟ وهل كان محقاً ذلك الذى قال ان تربية طفل على يد هذا الفيلسوف كانت تربية فاسدة مشئومة؟ ان معلومات نيرون كانت تنهض دليلا على عكس ذلك. فقد كان على أتم تثقيف وأكمل تعليم. مولعاً بالفنون. مغرما بالآداب. حتى رأيناه فى الخامسة عشرة يرتدى ثوب المحاماة ويترافع باللاتينية عن البولونيين. وباليونانية عن سكان رودس وترواده.

واذا نحن صدقنا تقليداً من التقاليد الرومانية علمنا أن الرومانيين قد أسفوا على نيرون وهم يذكرون أمداً طويلا نعمة الخمسة الاعوام الاولى من حكمه حيث ساد الهدوء. وعمت العظمة. ولكن هذا التقليد لا يشرف الرومانيين فاذا كان الامبراطور الجديد قد وعد بأن يسلك سنة أغسطس ويحتذيه مثلا فى أعماله. واذا كان قد رفع عن عواتقهم شيئاً من الضرائب. وسن قوانين تحتم الاقتصاد واجتناب الترف. واذا كان قد عاون أعضاء مجلس الشيوخ الفقراء بماله الخاص ونفذ مشروعات عظيمة فى المدينة. واذا كان قد أمضى حكم اعدام وهو يقول: «لقد كنت أريد أن لا أعرف القراءة والكتابة» فان كل ذلك لا يمكن انكاره ولكن يجب أن لا ننسى ان أول عمل من أعمال حكمه كان قتل سيلانوس ولا جريرة له إلا أنه من أقارب «كلود» وبعد ذلك بأقل من عشرة أشهر أمر بأن يتجرع بريتانيكوس السم أمامه. وهو شقيق

زوجه وابن والده بالتبني وصهر والدته . ورفيقه في الطفولة . وقبل أن تنتهي الخمس السنوات الاولى من حكمه كان قد أعدم أمه أجريبين . فهذه السنوات الخمس قد بدأت بالقتل وانتهت باستباحة دم الام . وهذا هو مجد هذه الفترة

لم يكن قتل اجريبين باول خطوة قطعها نيرون في سبيل الاجرام . ولكنها كانت أجسم خطوة وأبشعها . فمنذ مأساة « بايا » لم يعرف نيرون أي قانون ولم يعترف باي قانون ولم يخضع لاي احساس انساني . ويلوح انه ذعر من هول هذا الاثم الفادح فأراد أن يمحو ذكراه بارتكاب آثام جديدة لتذهب ذكرى احداها في طيات ذكرى الاخرى . فغسل يده التي لوثتها دماء والدته في بحر مسجور من الدماء . وهكذا بدأت سلسلة فواجع نيرون . وهي مأساة قامت على قاعدة : « اني اقتل فاذن أحكم » ولقد اعدم اربعمائة عبد برىء في يوم واحد . وسم بيروس . وذبح سيلا وبلوتوس . وخنق البائسة كلوديا في حمام ساخن بعد أن طلقها واتهمها بالزنا . والقى الى الوحوش قطعانا من المسيحيين . واستخدم ثلاثة آلاف شهيد . كفنوا أحياء في لفافات دهنية في إضاءة شرفته المسرحية . وعذب الممثلة المضحكة ابيكاريس حتى ماتت . وطوح رأس لاتينوس . وانتحر بيزون وسينيك بقطع الوريد . وقطع عنق سوريوس . وسولبيسيوس . واسبر وكنتيانوس . وسيفينوس . وسنسيون . أما الشاعر لوكان والقنصل فستينوس فقد قطعت أيديهما وأرجلهما وترك الدم ينزف الى أن ماتا . وقتلت بوبيا وهي حامل بلكزة من قدم . وقتل سيلانوس . وانتحر أنتريوس . وبيت اوستوريوس بيده الخنجر في صدره نفسه . وأغرق سيرياوس وكرسبينوس وميلا . ومات تراسيئايس وبترونيه في الحمام والشرايين مقطوعة تتدفق منها الدماء . وأعدم انطونيوس . وكذلك بولس وصلب بطرس . وأغمد كوبولون سيفه في أعماق ذاته . ومات الاخوان سكريبونيوس معا . وقتل كرسوس . وفي

النهاية جاء دور نيرون نفسه . فقد خانه أنصاره واضطهدوه وطاردوه كالطير الجارح حتى تعب وانهك وحرم الماء والغذاء . ولما فقد شجاعته أمام الموت سأل بعضهم أن يقتل نفسه كي يتشجع ويقدم على الانتحار وهو الذي رأى على أعينه كيف نفذت أحكام الاعدام التي أصدرها . ثم قضى الامر وبيت الخنجر في صدره بمعاونة معتوقه « ايبا فروديت »

لقد كان نيرون جديراً بموته أبشع من هذا الانتحار الذي أرغم عليه . انه كان خليقاً بان يقاسي العذاب والعار الذي قضى به عليه مجلس شيوخ خليفته الامبراطور « جلبا »

ولكن موته جاءت عنوان حياته . فقد قضى كما عاش . مجرداً من الشجاعة ومن الارادة . بيد ان من الواجب أن نقر بان نيرون كان في كل ذلك خاضعاً لسلطان خارجي دون سلطان نفسه إلا أن هذا لا ينتقص من بشاعة أعماله

إن نيرون . هذا الحاكم المستبد المطلق لم يعمل بارادته إلا نادراً . فقد كان خادم مطامع الجميع وشهوات الجميع . وليس هو الذي أنشأ القاعدة القائلة « القتل هو الحكم » ولكنه طبق هذه القاعدة دائماً أبداً في خشن لا يعرف للضمير وخزاً ولا تأنيباً ، وماذا يهم والضعف أخش الاغلاط التي يرتكبها زعيم أو ملك . فسواء ارتكب نيرون جرائمه لحساب نفسه أو بتأثير أساتذته ومستشاريه فانها ارتكبت باسمه وهو المسئول عنها أمام الخلف المنتقم

هكذا قال « هنري هوسيه » في كتابه « أثينا وروما وباريس » عن نيرون (ص ٢٠٧ وما بعدها) وهذا أقل ما يجب أن يقال في صدده . مادمنا لا نجد في كل صحيفة من صحف تاريخه دم أفراد أو نتن أفراد . وانما نجد دم أمة أراقه . وحياة أمة أزهقها . ونتن أمة ملأ الاجواء . وأفسد الهواء . وقد كان أقدر الناس على اجتناب العمل على كل ذلك منذ الساعة الاولى لزعامته .

لقد انحدر سعد من عمدة . وتربى فى وسط الـكتاب ووسط القرية خلال عهدى سعيد واسماعيل . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره اندمج فى وسط الازهر . ومهما كانت مقدرة الشيخ المهدى العباسى . ومهما كان سلطان الشيخ أبو النجا الشرقاوى . ومهما كان سحر الشيخ محمد عبده . فانهم جميعاً ما كانوا يستطيعون أن يغيروا غرائز سعد . ولقد وقفوا أمامها عاجزين كما عجز سينيك الفيلسوف عن تغيير غرائز نيرون فهذا شب حلاقا يقص الاوردة والشرايين وينتزع الارواح . ويجز الرقاب . ويعلن أن القتل هو الحكم حتى انتهى به الامر إلى أن رقص رقصة المذبوح . وذاك شب عمدة وفقيه . يحارب بسيف ذى حدين يقبض على سنه فيدمى يده ولا يصيب غريمه . يفتى الفتوى بهرجا وزيفا . ويلبس الحق بالباطل تضليلا وغاية . ويترجم عمله عن أن الحكم هو التخريب والهدم . والسيادة هى استغلال النفوذ والقاء المعارضين تحت الردم . حتى انتهى أمره إلى أن أصبح وجوده زهواً وباطلا . وأمسى الزعيم كذباً عاطلا ومعطلا

يجرأ البعض على أن يمشى إلى الناشئة على غير استحياء . ويسعى اليوم على غش لاليقنعهم وأنما ليخدعهم بأن سعدا كان فخر مصر فى ناشئته الاولى . وفى عهد كرومر . وفى أيام مصطفى كامل . وقبل الحرب . وإبان الحرب وبعدها . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . فما كان سعد فى ناشئته الاولى إلا سهما رشقه العرابيون فى فؤاد مصر . وما كان بعد ذلك إلا شؤما على مصر . رأيه منكود . وفكره مردود . وحجته على هامة مصر كالسيف . وبرهانه على الامة حيف . كان للاحتلال نصيراً . وبأعلان الحماية ناصحا ومشيراً . ولاستقلال مصر نكيراً . ولحريتها ساحقا . ولكرامتها ماحقا . وإذا كان قد قضى فى القضاء دهراً طويلا بعيداً عن أن يظهر فى ثوبه الخلق . وعادات النفاق والملق .

فلأن للقضاء ركناً خاصاً. لا رقابة فيه إلا الذات على الذات. وإلا الضمير على الضمير.

إن سعداً لم يقتل شيوخاً ولا نواباً. ولم يرد أصدقاءه ولا أحباباً. ولم يهدم أنصاراً ولا أعداء. ولم يكفن ثلاثة آلاف مصري بلفافات من الدهن ليضيء بهم مسرحه. أو يستصبح بهم في ليله حتى يزداد سروره ومرحه. ذلك بأنه كان أجبن من نيرون. ومن كان أجبن من نيرون يستحي من أن يقتل الناس فرادى بالسلاح ويستحي من أن يقابل عدوه بالاتفاق مع أرلندا والهنود والكماليين. واكتفى وسعه أن يقتل أمة بالورود والرياحين وبالنقود دون السكين فقد نثر الورد على الأمة حتى خنقها. وكفنها بلفافات من ورق البنكنوت الذي تبرعت به في سبيل انقاذها. وأضرم النار فيها لتضيء السبيل أمام الانجليز وتجتاح كل عقبة في سبيلهم حتى تهتدي خطاهم الى تحقيق آمالهم. وتسرع في تنفيذ مشيئاتهم.

ولكن سعداً إذا امتاز على نيرون بأنه خنق أمة بسعر ضلاله. وإذا اختلف عنه بنعومة وسائل وحشيته. وإذا فاقه في جبنه وفقدان شجاعته وانعدام ارادته فقد اجتمع معه في أنه كان متأثراً بسلطان غير سلطانه. وضمير غير ضميره. وارادة غير ارادته.

لقد دفعه صبره مصطفى فهمي وهو على رأس لجنة تأسيس الجامعة الى أن يتركها حتى تنهدم فتنتهي ليكون وزيرا ودفعه دنلوب إلى مطاردة العلم حتى يسحق. وإلى منازلة اللغة العربية حتى تمحق. وبذلك حال دون انتشار العلم وحصر المتعلمين في دائرة ضيقة يمكن إغواءهم بالوظائف واضرام جمرة المطامع في صدورهم مع أن أمة محتلة يجب أن يخرج شبابها ورجالها جميعاً على وجودهم حتى يكون لهم وجود وكيان. ثم استفزه رشدي وعدلي فيما بعد ليكونوا زعيما.

واقتاده الانجليز فى النهاية ها كما يأمره.

لقد خلق سعد زعيماً لهدم . فحطم المعنوى بكافة فروعه . ففى أيامه بدأ تساقط الارادات حتى سقطت . وتهدم الخلق حتى انهدم . وتراخت الغيرة حتى انعدمت وباء الاستقلال بالخسران حتى أمسى هباء . وقديما بدأ وزارته فى الحقانية بهدم الحرية عندما أيد تنفيذ قانون المطبوعات سنة ١٩٠٩ فى شدة وقسوة . ووضع قوانين الاتفاقات الجنائية فى سنة ١٩١٠ الخ وفى عهد زعامته احتفل بدفن الحرية تحت ستار حرية المظاهرات . وبدفن الضمير ببسط الرقابة على القضاء . فهو المسؤل عن كل ذلك أولا وأخيراً أمام الخلف المنتقم . فهل يصح لنا أن نقول بعدئذ أن سعداً كان الرجل السياسى والوطنى ؟ .

ماذا كان سعد؟

لا يمكننا أن نمثل سعداً إلا بهيروسترات . فكلاهما جن بالشهرة دون العظمة

فمنذ ٢٣٩٥ سنه ارتكب هيروسترات جريمة من أفظع الجرائم هى أضرام النار عمداً فى معبد « ديانا » الالهة اليونانية بأيفيز . فمن كان هيروسترات ؟ ولم أضرم النار فى هذا المعبد الاثرى العظيم ؟

يقول المؤرخ وفاق روح الاسطورة أن هيروسترات كان عبداً أو اجيرا أو معتوقا أو رجلا غامضا خامل الذكر . نهش نفسه التعطش القاسى للشهرة ولما أعيته الحيلة ولم يستطع أن يكشف عن وجوده ما انسدل عليه من حجب الظلام وغمام كده وجهوده المتواصلة . أخذ يتطور من رغبة إلى رغبة . ومن أمل إلى أمل . ثم من خيبه إلى خيبة . ومن يأس إلى يأس حتى استولى عليه جنون الكبرياء وذهول الثورة فى سبيل تحقيق المطمع

لقد وقف هيروسترات إلى جانب المعبد وأخذ يناجى نفسه ويبثها

شكواه . ويذكر آلامه . ويثير آماله الخائبة . وأمانيه الفشيلة . ويخور مطامعه الحاقدة . ثم أنشأ يفكر في أي عمل . وأي منهج . وأي مسلك . وأي جنون يمكنه من تحقيق مطامعه وإنجاز شهوته . وإذاعة شهرته . وبينما هو كذلك استوقفت أنظاره عظمة المعبد وأطاشته روعته . ثم استغواه الشيطان وصاح وأزمه الكلب ترمى عقله كالمألوق: « لا رطن اسمي بحريق معبد ديانا ». وقد كان ذلك والناس يترنمون مع الكهنة بمدح هذه المعبودة . ويرتلون آيات عظمتها ومجدها وإحسانها .

ولما جاء الليل وخرج الناس من المعبد ينسلون . كشف هيرو سترات عن خبيئة نفسه وانزلق تحت جنح الظلام إلى بيت التقوى واله لاح يعبث وبيده المشعل . وسرعان ماغشى الدخان المعبد . وزمجرت عواصف النيران وأخذت ألسنتها تعبث في كل مكان . فكان كل شيء طعاما بشماها . وتداعت العمد وخرت . وتساقطت السقوف فوق أنقاض الحوائط . وتمت الجريمة . ولم يبق داخل المعبد غير الذكرى . ولم يظهر من الخارج غير أكوام وأطلال من الركام . ووقفت أجواق القسوس في يأس وحزن ترتل أناشيد اللعنة وهي تبكي المعبد . وطفق المتعبدون يكلون لله أمر الانتقام من المجرم على فعلته الشنعاء .

ولكن البوليس التى القبض على المجرم دون أن يعالج فراراً

لقد قام بمهمته . وماذا يهمه من الحياة . وقد أصبح خالداً .

وعندئذ اجتمع مجلس الولايات الايونية . وعذب هيرو سترات حتى يفصح عن بواعث إثمه

فأجاب هيرو سترات في كبرياء وعجرفة . انه اقترف جنايته حتى يبقى أبد الدهر ذائع الصيت والشهرة فحكم بالاعدام على المجرم الاثيم . وقبل التنفيذ تلى عليه المرسوم الذى أصدره البرلمان (الدييت) قاضيا بحكم الاعدام لي من

يذكر اسم هيروستراث اللعين أو يشير اليه . فبم أجاب على منطوق قضائه . وأى نشيد أعلن به فاحش خلوده ؟

لقد حكم بالاعدام على المجرم ولكنه لم يندم . بل فاخر بجرمه الفظيع . وباهى بإثمه الشنيع . وتوسم أمام قضاته ان الزمن سيضرب حكمهم بسيف البطلان . وجعل يقول : « لقد انطبع اسمى الآن بحروف من نار على خرابات معبد ديانا . وستمضى القرون الطويلة وايفيز الجميلة قاعاً صفصفاً . وساحلا بلقعا مهجوراً منبوذاً وديانا تهيم على وجهها فى كل مكان خارج معبدها . وسأكون خلال هذا الزمن ذلك الشهير الذى ارتفع اسمه فوق الاسماء وارتسم بحروف من نار فى كبد السماء لينير الاكوان والاجواء . وستبقى ذكرى هيروستراث طالما بقيت ذكرى معبد « ايفيز » وذكرى « الآلهة ديانا » وذكرى أرض الاغريق القديمة

وهكذا كانت حال سعد . فالمؤرخ واثق كل الثقة أنه لم يكن إلا ابن عمدة تولى العمدية فى عهد الاستبداد . ثم تخرج من الازهر أيام انحطاطه العلمى فهو اذن نشأ غامضا خامل الذكر . ولكن انحداره من الشيخ ابراهيم زغلول قد جعل فيه نوعا من الطموح الوحشى تكبح جماحه قسوة الجبن الذى أثقل ماضيه . وقد أضرم نار هذا الطموح الكبير الحزين اختلاطه بالعرابيين الذين لم يعرفوا الثورة للفكرة وانما للوظيفة والمنصب فنشأ هذه النفس الجبارة الخوارة تعطش للثورة فاسق متشرد هربيد هدام فلم يستطع سعد أن يرفع عن وجوده ما أسدل عليه من سجوف سوداء رغماً من كده وجهوده المتواصلة . وعندئذ أخذ يتطور من رغبة تتحقق ثم تخيب . ومن أمل يسطع ثم يزور ويغيب ولما جاء دور الجمعية التشريعية بعد ما يشبه الاقالة من الوزارة . طفق يتنقل من خيبة إلى خيبة ومن يأس إلى يأس إلى أن دفعه عدلى ورشدى إلى قيادة الثورة وهو غير أهل لها وعاجز بحكم الزمن وعلمه وتجاريبه عن ادارتها

فأجاءه جنون الكبرياء والعظمة وذهول الاهتياج في سبيل تحقيق المطمع.

لقد وقف سعد إلى جانب مصر وجعل يناجي نفسه ويبثها شكواها . ويثير ذكرياتها وبلواها . ويردد آلامها ومناها . فيحرك الشجن خواطر أيام المحن . ويؤجج الحزن نيران الاحن . فتخبو مطامعه الحانقة وتخونه . وتعلو الكآبة وجهه . والغيظ ينفجر من عينيه . وهو في بحر لجي من التفكير والتدبير . التفكير في العمل . والتدبير في سبيل المسلك المؤدي الى تحقيق الغاية والمقصد . وما هو إلا أن أصيب بجنون ظن انه أسهل وسيلة إلى إدراك الامل . واجتناب الفشل . واذاعة الصيت . وكسب الشهرة .

لقد استوقف نظره الجمع الحاشد من حوله . فخالهم رجالا يشدون أزره حوله وطوله . وطفق يسحرهم حتى حملهم على أن يتقايئوا عقولهم ليرضوه ويستفرغوا كرامتهم ليرفعوه . ويبذلوا حياتهم لينقذوه . وخلق لهم من نفسه صنما معبوداً . ومنهم أدوات وجنوداً . يسخرهم في لهوه ولعبه . ويستعين بهم على إرضاء حنقه وغضبه . ولكنه تصور مع هذا الخضوع . وتوهم مع هذه الذلة والخنوع . انه لا يأمن شر هذا الجند المستضعف إلا أن يغالبهم على غرة فيغلبهم . ويصارعهم غيلة فيصرعهم . وكأننا به وقد صاح « فلتمت مصر ولا عاش أنا » وهذه أعماله ناطقة كلها بهذه البديهية

وبينما أغلبية الناس يترنمون مع الكهان بمديح هذا المعبود . ويرتلون أناشيد عظمته ومجده واحسانه وبينما انجلترا تطلق دخان سياستها حجبا تسدل على الحق . وبينما رجاله يجمعون من شدة الاعياء ترتب على مجاهدة النفس في اقامة شعائر الولاء وفروض الطاعة لسعد ! . وإذا به يخرج وبيده المصباح الخافت ليصب الزيت منه على أجساد أمته وكأنه يباركهم . ولكن لم يمض زمن يسير حتى غشي الدخان سماء مصر . وزمجرت عواصف النيران وأكلت

السنتها كل مكان . فتداعت العمد . وانقضت على الانفس وتساقطت السقوف على الانسان والحيوان . وراح كل شيء طعمة بشمة الهول وتمت الجريمة ولم يبق داخل مصر غير الذكرى . ذكرى الاطهار طالبوا بالاستقلال واجلاء الاحتلال

ولقد خط سعد على وجه من قبر مصر العام . « هنا تقم أمة كانت حية في سابق الأزمان » وعلى وجه آخر « أبد الامة التي تثق بك تسد وتحكم » وعلى ثالث « اجعل من أصهارك جلادين . ومن أنصارك سجانين . ومن معارضيك شهداء » . وترك الرابع خاليا ليسطر عليه « وهنا دفن جلاد أمته »

وأما من الخارج فقد انهدم الزخرف وضاعت أسس السيادة . وها هي اليوم أجواق الكهان في يأس وحزن . ترتل أناشيد اللعنة وهي تبكي مصر . وهاهم عباد الله يكلون أمر الانتقام الى الله .

ولقد وقف سعد جامداً في مكانه . لايعالج قرارا خلال سنوات انقضت بعد اشهار افلاسه الادبي . ولقد وقف هذا الموقف بعد أن أدى مهمته وأصبح لايهمه من الحياة شيئاً . لانه أدرك الخلود وقرن اسمه بحريق مصر . وهل من حريق أشد هولا من أن يسلم لانجلترا في الوطن عندما تحدث مع ونجت في ١٣ نوفبر سنة ١٩١٨ وعندما فاوض ملنر في سنة ١٩٢٠ . وعند ما رضي بتصريح ٢٨ فبراير نهائياً عقب تحالف الاحزاب في سنة ١٩٢٦ واعلان سياسة الوفاق التي قررت اعتماد تصرفات الحماية باقرار قوانين الحماية وقوانين التضمينات . والتعويضات والاجتماعات والمظاهرات . ووضع جميع المشروعات القومية في سلة المهملات وبعث العمل بتلغراف جرنقل عند ماخضع وارتضى وهو زعيم الاغلبية أن يمين عدلي وثروت رئيسين للحكومة بالتتابع . وعند ما أعلن في غير خجل أنه يريد حكومة زغلولية معنى ولحما ودما وروحا . ليهدم التقاليد ويسحق الكفاءات ويدهور الاخلاق ويربي الفساد ويعود الناشئين على الاجتراء على تقويض الجنسية وإقامة الشخصية الذاتية مقامها وما الى ذلك مما يمكن

الاستشهاد به على صحة تدعيم الحماية على يد سعد مما سيجيء تفصيلا ونصا؟

لم يستطع مصري أن يجذب سعداً كي ينتزع منه أسرار بواعثه على ارتكاب اثمه . اثم شراء الناقة وفي رقبتها ذلك الحداء الملعون يعلي من قدرها ويسمو بثمنها حتى يجعله عدل ثمن وادي النيل .

ان سعداً لم يكره على الاعتراف وانما اعترف في كبرياء وصلف وعجرفة بانه اقترف جنايته ليبقى أبد الدهر ذائع الصيت والشهرة . يدوي ذكره في جميع الأنحاء ويعلو اسمه كل الاسماء

وليس لك في سبيل التحقق من ذلك إلا أن تختبر مواقفه وتسمع « الطقاطيق » التي رددها هذه المواقف وترى تسليمه المخزي المريب كقوله « من علامات اذن الله بالنجاح ان تولينا الوزارة في الوقت الذي تولى فيه حزب العمال مقاليد الحكم في انجلترا وهل عندكم جريدة دلوني على السبيل . والاستنكار شيء والتنفيذ شيء آخر . والانجليز خصوم شرفاء معقولون . ولانجلترا في مصر مصالح لا تتعارض مع الاستقلال الخ . فهل كل ذلك لا يحمل على الاعتقاد بان الثعلب كان دائما يحاول ارتداء جلد الاسد ليسود ويحكم ويعمل للشهرة والخلود ما اشتهرت انجلترا بضم وادي النيل على يديه . وخلد التاريخ بقاءها فيه . أو بمفاوضات تقر الامر الواقع وليس لاخطارها من دافع ؟

غير أن هناك فارقا بين هيروسترات وبين سعد . هذا الفارق هو أن نواب الولايات الايونيونية قد أصدروا حكمهم على الاثم . أما سعد فقد أفلت . ولكن لاعصمة له من قصاص الله . وقضاء الاجيال المقبلة ولا يمكن أن تكون قوة انجلترا سبباً في عذرة فقد كانت سياسة مصطفى كامل خير قدوة له

على أننا نرى من الواجب أن نبحث فيما إذا كان هناك عامل آخر قد دفعه إلى هذا التدهور . فاذا وجد وجب أن نتحرى هل هو من الظروف المخففة أم من الظروف المشددة أم من تلك المانعة من العقاب ؟

لقد كان سعد متشككا بدافع الوراثة إلى حد بعيد . لأن العمدة يريد دائماً أن يرضى كل فرد أو يظهر بمظهر من يريد إرضاء كل فرد . ثم هو فى الوقت ذاته يرتضى كل شيء . أو يظهر بمظهر من يرتضى كل شيء فيؤول أمره إلى تعود ذلك حتى يصير الأمر عادة تتحول إلى غريزة تنتقل بالوراثة ولقد كان وسط المرابين ووسط الازهر ومدارج رقى سعد كالطمى اكسب تشكك سعد الوراثى خصبا ونماء وقوة . فهل كان سعد مسئولا عن عمله أم غير مسئول؟ وإذا لم يكن فمن المسئول؟

سعد في نظر أنصاره

يرى المعتدلون من أنصار سعد أنه رجل الذكاء والارادة والفكرة . وأما المتطرفون فهم لايتورعون عن أن يخلعوا عليه القاب النبوة . والربوبية . فهو أما أبو الحرية أو أبو الاستقلال أو المنقذ . وأما أنه مبرىء المقعد والمريض . ولقد اشتد هذيان الحمى على البعض فجمل بقول « الشرك بالله ولا الكفر بسعد » وإذا نحن أثبتنا أن المعتدلين لم يصيبوا كبد الحقيقة أنهار ادعاء المتطرفين من تلقاء نفسه ؛ وبعبارة أوضح إن سعدا إذا لم يكن زعيما بالمعنى الصحيح تزول عنه صفة النبوة ويسقط عنه وصف التأليه .

لو أن المعتدلين من السعديين لم يجهلوا علم النفس جهلا تاما لكفوا عن الاشادة بذكاء سعد وإرادة سعد وفكرة سعد .

فالذكاء إذا تخطى حدوده الطبيعية بموجب قانون الوراثة وحدود الاكتساب بموجب قانون الوسط . جعل شعلته تلتهم كل شيء . وافضى بحكم قانون المقاصة بين المواهب إلى اعدام كثير من المواهب أو أدى بحكم المشاهدات والتجاريب الطبية الى الارتباك والتردد والتشكك والشقاء وأما من ناحية

الارادة فنشهد بين يدى الله أن إرادة سعد كانت حديدية . ولكنها إرادة لم تستخدم إلا فى ميدان السوء . هذا إلى أن الارادة لادخل لها فى تكوين العقيدة . لأن مهمتها علمياً قاصرة على الاحتفاظ بالعقيدة بعد تكوينها وسنبين ذلك تفصيلا عند الكلام عن مهمة الارادة . وتكوين العقيدة

وأما أن سعدا كان رجل الفكرة فقول مردود . لأن الفكرة علمياً هى أفراز المخ . ولا يمكن أن يكون التدليل على عكس ذلك بتطبيق نظرية السلك التلفونى . لأن هذا السلك موصل للصوت لا مولد له فاذا كان المركز العصبى حيث تقيم الفكرة قد تهدم . فلا مناص من انعدام افراز الفكرة . أى انه إذا مات مخاطبك كف سلك التلفون عن نقل صوته اليك وكذلك إذا فسد مخ الانسان .

أن المخ غدة تؤدى وظائف عديدة مختلفه . كالكبد والكلى الخ . وافرازات هذه الغدة تختلف كافرازات الغدد الاخرى تبعاً للنوع الحيوانى واليك برهان نستخلصه مما نسميه الغريزة .

خذ عصفوراً ساعة فقسه . وربه بعيداً عن أى عصفور . ثم تعال بعد أن يشب ويكبر لترى هذا العصفور يصنع عشه على وتيرة اسلافه العصافير . فمن علمه ذلك ؟ أن الذى علمه ذلك هو بلاشك مخه الذى يفرز الفكرة كما يفرز الكبد مرارته وكما يؤدى كل عضو من أعضاء الجسم الانسانى وظيفته وفاق قانون الوراثة

وهل الحلم ليس دليلا على افراز المخ للفكرة ؟ إن غدة ما يجب أن تفرز بلا انقطاع وأذن فالنوم لا يؤدى إلى توقف هذا الافراز . والغدة التى تفرز كثيراً أو قليلا أو فى غير كفاية هى غدة مريضة . وهل لا يكون المخ مريضاً طبياً عند ما يكون افرازه زائداً عن المألوف أو عند انعدام الافراز فيتولد عن ذلك الجنون والانجذاب والبله والعته ؟ لقد كان ذكاء سعد مفرطا وكان يولد أفكاره زائداً عن الحد الطبيعى فتضاربت وتباينت فى غير حساب

لم يعترف سعد فى حياته بأنه مصاب بالبله أو العته أو الجنون . ولكنه اعترف رسميا أنه رجل لا رأى له ولا عقيدة ، متردد متشكك تكيفه الوظيفة وذلك فى محضر الجمعية التشريعية الرقيم ١٦ يونيه سنة ١٩١٤ حيث قال « انى كنت قاضياً . وكنت وزيراً . والآن أنا عضو بينكم . وأحس من نفسى أن شعورى كان يختلف باختلاف مركزى . وكان لى فى كل مركز شعور خاص ومع ذلك كنت حسن النية فى كل المراكز التى شغلتها كما ينطق بذلكم الآن سعادة الوزير بحسن النية ويقول انه يعدل بينكم إذا فصل فى أمركم ولا يحيد عن الحق قيد شعرة . كنت كما قلت لكم فى كل مركز لى رأى . ولكن هذا تأثيراً توسط

« اخوانى ! عملت وأنا وزير عملا لو عرض على الآن لكنت أول المنتقدين عليه والمعارضين فيه بكل قواى . عملت لظروف بررتها و ذلك الوقت أمام نفسى كما يبرر اخوانى أعمالهم الآن . وكنت حسن النية كما أنهم حسنو النية ولكن لو عرض على مثل هذا الامر الآن . أراه خطأ جداً وأتألم له غاية الالم

أمامنا مثل وهو قانون المطبوعات فانى كنت معارضا أولا فيه وفى اصداره ثم اشتركت بعد ذلك فى اصداره . ثم ندمت على هذا الاشتراك . ولكنى وقتما اشتركت فى اصداره كنت مقتنعاً بأنى لاحظت ظروفا يجب على ملاحظتها وشاهدت بعينى تطبيق هذا القانون . واشتركت أيضاً فى تطبيقه . هذا الاشتراك فى مجلس النظار هو الذى يخيفنى من أحكامه بصفة كونه محكمة » قال سعد هذا القول دون أن يعبأ بالحكمة الخالدة التى القاها مصطفى كامل بقوله « لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين أو تحولت الاهرام من مكانها المكين لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد »

فسعد بهذا التصريح قد أقر بأنه كان فى جميع أدوار حياته رجلا حائراً متردداً متشككا فى النهاية . فما هو التشكك وما هو أثره ونتائجه ومداه وعلاجه ؟ هذا موضوع الجزء الثانى من « الفاتحة » مع تطبيقه على سعد .

تصحيح

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	٣	ليندر	لينذر
٤	٤	تميز	يميز
٥	٢٠	آوه	آونة
٥	٢١	العداة	العداء
٧	٦	المهضوومين	المهضومين
٧	٢٠	الغاوبن	الغاوين
٨	١٦	ويخنفون	ويخنقون
١٠	١٠	قترة	فترة
١١	٧	ع، القلوك	على القلوب
١٤	١٤	لمعارك	المعارك
١٥	٨	اذا	اذ
١٦	١٣	١٩٣٠	١٩٣٤
٢٤	١٥	أو خطأنا	أو أخطأنا
٣٠	٧	وخداعة	وخداعه
٣٦	٩	بذغ	بزغ
٣٧	٣	بجميع	فجميع
٤٦	٢١	أو قواعد	أم قواعد
٤٩	١٨	أصلب عود	أصلب عوداً
٦٨	٤	الورانية	الوراثية
٧٣	١٩	الاشاترك	الاشتراك

فهرست الجزء الاول

من الفاتحة





